

الخيـط الخفي

رواية في الفكرة والهوية والسلطة

والفيل، ويقرر بعد اكتمال الأدلة.

نبذة عن الرواية

ماذا لو جلست الحيوانات يوماً تنتظر إلى الإنسان وتساءل:

ماذا حدث له؟

كيف بدأ الإنسان يبحث عن الحقيقة، ثم صنع لنفسه روايات يصدقها؟

كيف تحولت الفكرة إلى هوية، والهوية إلى انقسام، والانقسام إلى عداوة، ثم أصبحت السلطة قادرة على أن تجعل الإنسان يظلم الإنسان؟

في هذه الرواية، لا يروي الإنسان قصته.

الحيوانات هي التي ترويها.

يقود الأسد الرحلة باحثاً عن خيط يربط بين أحداث متباعدة في التاريخ. يطرح فرضيته، ويعود إلى القرآن، ويجمع الآيات، ويربط بينها وبين ما جرى، محاولاً أن يرى الصورة التي لا تظهر من قراءة كل حدث منفرداً.

لكن الأسد لا يبقى وحده.

فالثعلب لا يكتفي بما يسمعه؛ يعترض ويسأل:

أين الدليل؟

هل ما تقوله الآلة صراحة، أم أنك تستنتج منها؟

وهل ما يرويهِ التاريخ حقيقة، أم رواية كتبها المنتصرون؟

أما الفيل، فيعود كل مرة إلى السياق، ويذكر الجميع بأن الجماعة ليست فرداً، وأن الموروث ليس بالضرورة هو النص، وأن التفسير لا يصبح حقيقة بمجرد أنه تكرر عبر الزمن.

تبدأ الحكاية من سؤال عن إسرائيل وإبليس، ثم يتتبع الأسد أثر الفكرة عبر الاختيار والذرية والانقسام، وصولاً إلى ما تسميه الرواية «النصيب المفروض»؛ ذلك الإطار الذي قد يجعل الإنسان ينسى أنه يملك الاختيار، فيظن أن ما ورثه أو فرض عليه هو الحقيقة التي لا يمكن مساءلتها.

ثم تظهر الأدوات التي تتكرر في رحلة الإنسان:

الإغواء.

الوهم.

الجبث.

الطاغوت.

الرواية.
الخوف.
صناعة العدو.
واحتكار الحقيقة.

وتنتقل الحيوانات مع الإنسان عبر التاريخ، لا لتصدر حكماً على ما جرى، ولا لتقرر من كان على الحق ومن كان على الباطل، بل لتشهد، وتسأل، وتختلف، وتحاول أن تستخلص من الوقائع ما يمكن أن يبقى منها من عبرة.

فهي لا تريد أن تكون قاضياً على الإنسان.

ولا تريد أن تجعل كل الأحداث جزءاً من مؤامرة واحدة.

إنها تحاول فقط أن تفهم:

هل يمكن أن تبدأ فكرة في مكان ما، ثم تنتقل آثارها عبر الأجيال، وتتغير الوجوه والأسماء والأزمنة، بينما تبقى بعض آليات الإغواء والخوف والسلطة كما هي؟

وهنا يعود الأسد إلى القرآن.

فالقرآن حاضر في قلب الرحلة، لا بوصفه تعليقاً على الأحداث، بل بوصفه النص الذي تعود إليه الحيوانات كلما اختلفت الروايات.

ما يقوله القرآن شيء.

وما يقوله التاريخ شيء.

وما تفترضه الرواية شيء ثالث.

وبين هذه المستويات الثلاثة يبقى السؤال:

أين البرهان؟

لا تريد الحيوانات أن تفهم الإنسان فقط.

إنها تريد أن تتعلم منه.

فإذا كان الإنسان قد امتلك العقل والاختيار والبصيرة، فلماذا سمح للخوف أن يقوده؟

ولماذا سلّم عقله للرواية؟

ولماذا تحولت هويته إلى حدود تفصله عن غيره؟

ولماذا أصبح الاختلاف أحياناً سبباً للعداوة؟

وفي نهاية الرحلة، يجمع الأسد الحيوانات من حوله، لا ليعلم حكماً على الإنسان، بل ليقول:

لا تكرروا أخطاء الإنسان.

لا تعطوا أحداً عقولكم.

لا تجعلوا الخوف سيديكم.

لا تقدسوا الرواية.

لا تجعلوا الاختلاف عداوة.

لا تجعلوا السلطة فوق الحق.

ولا تسمحوا لأحد أن يختار عنكم.

فربما لم تُرو قصة الإنسان كي نحكم عليه...

بل كي نتعلم كيف لا نصبح مثله.

وهنا تنتهي قصة الإنسان كما روتها الحيوانات.

لكن السؤال يبقى مفتوحاً أمام القارئ:

إذا كان الإنسان قد امتلك العقل والاختيار والبصيرة... فكيف سمح لغيره أن يختار عنه؟

الفصل الأول

كان هنا إنسان

كانت الليلة هادئة على غير عادتها.

لا ريح تعصف بين الأشجار، ولا أصوات تأتي من الجبال. حتى النهر بدا كأنه خفّص صوته.

في وسط السهل اشتعلت نار صغيرة.

تجمعت الحيوانات حولها.

جاءت الأفيال من جهة النهر، والذئاب من التلال، وجلست الغزلان عند أطراف الضوء. وعلى الصخور تجمعت القروذ، بينما اختارت البومة غصناً مرتفعاً تراقب منه الجميع.

أما الصغار، فجلسوا في الصف الأول.

كانوا ينتظرون الحكاية.

جلس الأسد العجوز أمام النار.

ظل صامتاً قليلاً، ثم رفع عينيه إلى السماء.

قال:

— الليلة سأحكي لكم عن كائن لم تره معظمكم.

رفع قرد صغير يده.

— هل كان مخيفاً؟

ضحك بعض الحيوانات.

لكن الأسد لم يضحك.

قال:

— ليس هذا هو السؤال.

سأل الصغير:

— فما السؤال؟

نظر الأسد إليه.

— ماذا فعل حين امتلك القدرة؟

ساد الصمت.

قال:

— اسمه الإنسان.

تحركت الحيوانات.

قال الفيل:

— سمعت عنه من جدي.

قالت البومة:

— وأنا رأيت آثاره في الصخور.

ابتسم الثعلب.

— آثار لا صاحب لها؟

التفت إليه الأسد.

— وهل ترى صاحب كل أثر؟

— لا.

— إذن لماذا تثق بالأثر حين يعجبك، وتشك فيه حين لا يعجبك؟

هز الثعلب ذيله.

— لأن الأثر لا يتكلم.

قال الأسد:

— وهذه مشكلتنا مع الإنسان أيضًا.

اقتربت بعض الحيوانات من النار.

قال الأسد:

— كان كائنًا ضعيفًا.

لا مخالف له كالأسد، ولا سرعة للفهد، ولا قوة للفيل.

ومع ذلك كان يحمل شيئًا جعل ضعفه لا يشبه ضعف بقية المخلوقات.

قال الذئب:

— القوة؟

هز الأسد رأسه.

— السؤال.

قالت البومة:

— كان يسأل؟

— عن كل شيء.

عن النار.

عن المطر.

عن السماء.

عن الموت.

وعن نفسه.

قال القرد:

— وهل عرف الإجابات؟

— بعضها.

— والباقي؟

— ظل يبحث.

قال الثعلب:

— وما المشكلة في ذلك؟

نظر إليه الأسد.

— لا مشكلة.

ثم أضاف:

— المشكلة تبدأ عندما يظن الباحث أنه وجد الإجابة، ثم يطلب من الآخرين ألا يسألوا.

ساد الصمت لحظة.

قال الفيل:

— يبدو أنك لا تتحدث عن الإنسان وحده.

ابتسم الأسد.

— ربما.

ضحك الثعلب.

— بدأت الحكاية الآن.

رفع الأسد رأسه.

— بل بدأت قبل ذلك بكثير.

نظر إلى الأرض من حوله.

— كان الإنسان يعيش بيننا.

الماء حوله.

والشجر.

والجبال.

والحيوانات.

والليل والنهار.

ثم حدث شيء غيّر موقعه في هذا العالم.

قال الغزال:

— ماذا؟

— أصبح قادرًا على أن يعرف، وأن يتعلم، وأن يختار.

قال الفيل:

— يختار ماذا؟

— ما يفعل.

سأل القرد:

— وكان يستطيع أن يختار الخطأ؟

— نعم.

— فلماذا؟

لم يجب الأسد فورًا.

كانت النار قد سقطت فيها قطعة من الخشب، فارتفعت شرارة.

قال:

— لأن الاختيار الذي لا يحتمل الخطأ ليس اختيارًا كاملاً.

قال الفيل:

— ومن أعطاه هذا الاختيار؟

— الله.

— والأرض؟

— أعطاهما له.

رفع الثعلب حاجبه.

— إذن أصبحت ملكه؟

التفتت إليه الحيوانات.

قال الأسد:

— هنا تبدأ المشكلة.

قال الثعلب:

— لماذا؟

— لأن الاستخلاف ليس ملكاً مطلقاً.

تدخل الفيل:

— وما الفرق؟

قال الأسد:

— إذا أعطاك أحدهم وادياً لتعيش فيه، هل يعني ذلك أن لك أن تسمم ماءه؟

— لا.

— وإذا أعطاك قوة لتحمي الضعيف، هل تصبح القوة إذناً لظلمه؟

قال الذئب:

— لا.

قال الثعلب:

— وإذا أعطاه الله العقل؟

نظر الأسد إليه.

— فماذا يفعل به؟

لم يجب الثعلب.

قالت البومة:

— وهل كان الإنسان يعرف أنه مستخلف؟

— كان يُذكر.

— ومن كان يذكره؟

قال الأسد:

— الرسل.

رفع القرد رأسه.

— لماذا يحتاج إلى من يذكره إذا كان يملك العقل؟

قال الفيل:

— سؤال جيد.

ابتسم الأسد.

— لأن امتلاك العقل لا يعني أن الإنسان يستخدمه دائماً كما ينبغي.

قال الثعلب:

— وهل كان يسمع الرسل؟

— أحياناً.

— ويطيعهم؟

— أحياناً.

— وأحياناً أخرى؟

نظر الأسد إلى النار.

— كان يسمع... ثم يختار.

قال الثعلب:

— إذن لا يمكنك أن تقول إن الإنسان ضل لأنه لم يكن يعرف.

رفع الأسد عينيه إليه.

— لم أقل ذلك.

— فماذا تقول؟

— أقول إن القصة أعقد.

سكت الثعلب.

تابع الأسد:

— كان يعرف أحياناً، ثم يخالف.

ويجهل أحياناً، ثم يبحث.

ويخطئ، ثم يعود.

ويصيب، ثم يظن أنه أصبح فوق الخطأ.

قال الفيل:

— وهذا ما يجعل القصة طويلة.

قال الأسد:

— وطويلة جداً.

حدقت البومة في الظلام.

— لكنك قلت إن الإنسان لم يعد موجوداً.

التفت إليها الأسد.

— من قال ذلك؟

— نحن لا نراه.

ابتسم الأسد.

— وهل عدم رؤيتك له يعني أنه انتهى؟

قال الثعلب:

— إن كان قد اختفى، فلماذا نحكي عنه؟

لم يجب الأسد.

بدلاً من ذلك، أشار بمخالبه إلى الأرض.

— انظروا حولكم.

نظروا.

ثم رفع مخالبه نحو الأشجار.

— انظروا هناك.

ثم إلى الجبال.

— وهناك.

ثم إلى السماء.

— وحتى هناك.

قال الفيل:

— تقصد آثاره.

— أكثر من آثاره.

اقترب القرد.

— ماذا صنع؟

قال الأسد:

— هذا ما سنكتشفه.

قال الثعلب:

— أنت تعرف.

— أعرف بعضه.

— وتخفي الباقي؟

ابتسم الأسد.

— لو كنت أعرف النهاية، لما احتجنا إلى هذه الحكاية.

ضحكت بعض الحيوانات.

لكن الفيل لم يضحك.

قال:

— إذن أنت لا تريد أن تحكي لنا ما حدث فقط.

نظر إليه الأسد.

— ماذا تريد أن تقول؟

— تريد أن تختبر فكرة.

ساد الصمت.

رفع الأسد رأسه.

— نعم.

قال الثعلب بسرعة:

— أي فكرة؟

نظر الأسد إلى النار.

— أن بعض الأشياء لا تنتهي بانتهاأ أصحابها.

قالت البومة:

— الأفكار؟

— ربما.

قال الفيل:

— والذكريات؟

— ربما.

قال الثعلب:

— والسلطة؟

لم يجب الأسد.

كانت تلك أول مرة يصمت فيها طويلاً.

ثم قال:

— لهذا أريدكم أن تسمعوا القصة كاملة قبل أن تحكموا.

اقتربت الحيوانات أكثر.

قال الأسد:

— لن أقول لكم إن كل ما حدث كان جزءاً من مؤامرة واحدة.

وسأفرق بين ما يقوله القرآن، وما يرويهِ التاريخ، وما أستنتجهُ أنا.

قال الثعلب:

— وستقبل اعتراضنا؟

— بل سأحتاجه.

قال الفيل:

— وإذا أخطأت؟

نظر الأسد إليه.

— فأسقطوا الفرضية.

رفع الثعلب رأسه.

— هذه أول كلمة أعجبتني منك.

ابتسم الأسد.

ثم ساد الصمت من جديد.

وفجأة...

ظهر ضوء بين الأشجار.

لم يكن ضوء القمر.

ولم يكن نارًا.

التفتت الحيوانات نحوه.

تراجعت الغزلان.

وقف الذئب.

ورفعت البومة جناحيها.

أما الأسد فلم يتحرك.

قال الثعلب:

— ما هذا؟

ظل الأسد ينظر إلى الضوء.

قال:

— لا أعرف.

ثم اقترب خطوة.

كان الضوء يزداد.

قال الفيل:

— هل رأيت مثله من قبل؟

— لا.

قال الثعلب:

— إذن لا تبدأ بتفسيره.

التفت الأسد إليه.

ابتسم.

— اتفقتنا.

تقدمت الحيوانات ببطء.

كان الضوء قادمًا من بين الأشجار.

ومع كل خطوة، ظهرت على الأرض آثار غريبة.

توقف الأسد.

نظر إليها طويلًا.

قالت البومة:

— آثار أقدام؟

انحنى الفيل.

— ليست لحيوان.

قال الثعلب:

— إذن...

رفع الأسد رأسه.

ولأول مرة بدا على وجهه شيء يشبه القلق.

قال:

— يبدو أن الإنسان لم يترك قصته وراءه.

تراجعت الحيوانات خطوة.

قال القرد:

— ماذا ترك؟

لم يجب الأسد.

كان يحدق في الآثار.

ثم قال:

— سؤالاً.

— أي سؤال؟

رفع الأسد رأسه نحو الظلام.

وقال:

ماذا يحدث عندما ينسى الإنسان أنه مستخلف... ويبدأ في التصرف كأنه صاحب الأرض؟

لم تجب الحيوانات.

ومن بين الأشجار...

تحرك الظلام.

وانطفأت النار.

الفصل الثاني

الإنسان الذي أُعطي الاختيار

لم تنم الحيوانات تلك الليلة بسهولة.

ظل السؤال الذي تركه الأسد معلقاً في الظلام:

ماذا يحدث عندما ينسى الإنسان أنه مستخلف؟

وعندما عادت الحيوانات في الليلة التالية إلى السهل، كانت النار قد اشتعلت قبل وصولها.

جلس الأسد في مكانه المعتاد.

كان الثعلب أول من وصل.

جلس بعيداً قليلاً، ثم قال:

— قلت إن الإنسان كان ضعيفاً.

— كان.

— ثم قلت إنه أصبح قادراً.

— نعم.

— كيف؟

نظر الأسد إلى النار.

— لم يصبح أقوى منا في جسده.

— إذن؟

— تعلم أن يستخدم ما حوله.

أخذ غصناً صغيراً من الأرض، وقلبه بين مخالبه.

— رأى في الغصن عصاً.

ثم أشار إلى حجر.

— وفي الحجر أداة.

ثم نظر إلى النار.

— وفي النار قدرة.

قال القرد:

— كان يرى الأشياء بطريقة مختلفة؟

قال الفيل:

— لم يكن يسأل: ما هذا فقط؟

أوماً الأسد.

— كان يسأل: ماذا يمكن أن أفعل به؟

قال الثعلب:

— وهذا ما جعله يتقدم.

— وأحياناً ما جعله يتراجع.

رفع الثعلب رأسه.

— كيف يمكن للشيء نفسه أن يفعل الأمرين؟

قال الأسد:

— لأن المشكلة لم تكن في الأداة.

ألقى الغصن في النار.

— بل في اليد التي تستخدمها.

راقبت الحيوانات الغصن وهو يشتعل.

قالت الغزالة:

— ومتى بدأ ذلك؟

— منذ أن اكتشف الإنسان أنه يستطيع أن يغير ما حوله.

بنى مأواه.

زرع أرضه.

خزن الماء.

شق الطرق.

وتعلم أن يفعل مع الجماعة ما لم يكن يستطيع فعله وحده.

قال الفيل:

— إذن التعاون كان سرًا من أسرارهِ.

— نعم.

— وهل كان دائمًا للخير؟

نظر الأسد إليه.

— هل تتوقع ذلك من الإنسان؟

ضحك الثعلب.

— الآن بدأت أفهم لماذا طلبت منا ألا نحكم مبكرًا.

لم يعلق الأسد.

قال:

— انظروا.

وفي الظلام ظهرت صورة من زمن بعيد.

كان رجال يجمعون الحجارة.

رفعوا بعضها فوق بعض حتى ارتفع جدار.

قال القرد:

— لماذا يبنون؟

— ليحموا أنفسهم.

جاء المطر.

احتموا خلفه.

اشتد البرد.

اقتربوا منه.

بكى طفل.

فدخلت أمه به إلى الداخل.

قالت الغزالة:

— كان الجدار نافعا.

— كان كذلك.

لكن الصورة تغيرت.

ارتفع جدار آخر.

وعلى جانبيه وقف رجال.

هذه المرة لم يكن هناك طفل.

كانت هناك أسلحة.

قال الذئب:

— هل هذا هو الجدار نفسه؟

— الفكرة نفسها.

— فلماذا تغير كل شيء؟

قال الأسد:

— لأن الإنسان قرر ماذا يعني الجدار.

اقترب الثعلب من النار.

— إذن يمكن للفكرة أن تتغير دون أن يتغير الشيء؟

نظر إليه الأسد.

— الآن أنت تسأل السؤال الصحيح.

سكت الجميع.

ثم قال الفيل:

— وماذا كان الإنسان يستطيع أن يختار أيضًا؟

قال الأسد:

— أكثر مما تتخيلون.

كان يستطيع أن يمد يده إلى من يحتاجها.

وكان يستطيع أن يمدها ليأخذ ما ليس له.

كان يستطيع أن يقول الحقيقة.

وكان يستطيع أن يصنع كذبة.

كان يستطيع أن يعفو.

وكان يستطيع أن ينتقم.

قال الذئب:

— إذن كان بعضهم خيرًا وبعضهم شريرًا.

اعترض الثعلب:

— وهل الإنسان بهذه البساطة؟

نظر الأسد إلى الذئب.

— راقبوا.

ظهر رجل في الطريق.

وجد طفلاً سقط من فوق صخرة.

توقف.

حمله وأعادته إلى أمه.

ابتسمت الغزالة.

— هذا رجل طيب.

ثم رأته في اليوم التالي.

كان غاضباً.

وقف أمام رجل آخر.

كانت يده على سلاحه.

قال الذئب:

— الآن سنعرف حقيقته.

ظل الرجل واقفاً.

ثم أنزل يده.

استدار ورحل.

قال الفيل:

— لماذا لم يفعل شيئاً؟

قال الأسد:

— فعل.

— ماذا؟

— اختار ألا يفعل.

قال الثعلب:

— لكنه كان يستطيع قتله.

— نعم.

— ولم يفعل.

— نعم.

قال الأسد:

— أحياناً يكون أعظم ما يفعله الإنسان هو الشيء الذي يقرر ألا يفعله.

بقيت الحيوانات صامتة.

ثم قالت البومة:

— وهل كان الإنسان يعرف دائماً ما يختار؟

— لا.

— وهل كان يملك شيئاً في داخله يدفعه إلى هذا أو ذاك؟

نظر الأسد إلى السماء.

ثم قال:

— اسمعوا.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۚ دَفَّلَحَ مِّنْ زَكَّاهَا ۖ فَدَخَبَ مِّنْ دَسَّاهَا﴾

قال القرد:

— ماذا يعني هذا؟

قال الأسد:

— أن الإنسان لم يكن صفحة بيضاء بلا اتجاهات.

قال الفيل:

— لكنه لم يكن مجبوراً.

— لم يكن مجبوراً.

قال الثعلب:

— إذن المسألة في النهاية اختيار؟

— اختيار ومسؤولية.

قال الأسد:

— ما يختاره الإنسان لا يختفي بعد أن يفعله.

الكلمة تترك أثراً.

والفعل يترك أثراً.

والقرار يجز وراءه قرارات أخرى.

قال الذئب:

— حتى الخطأ؟

— خصوصاً الخطأ.

ظهر أمامهم رجل أخذ شيئاً لا يخصه.

قال القرد:

— سرقة.

— نعم.

في البداية كانت مرة واحدة.

ثم تكررت.

ثم أصبح يخفيها.

ثم بدأ يقنع نفسه أنه يستحقها.

قال الفيل:

— بدأ الأمر بفعل.

— وانتهى بفكرة.

قال الثعلب:

— وهذه أخطر من الفعل نفسه.

نظر إليه الأسد.

— لماذا؟

— لأن الفعل يمكن أن يتوقف.

ثم أضاف:

— أما الفكرة إذا صدقها صاحبها، فقد تجعله يعيد الفعل وهو يظن أنه على حق.

ابتسم الأسد.

— لهذا لم تكن المعركة دائماً بالسلح.

بدأ الإنسان يكتشف قوة أخرى.

الكلمة.

رأى حيوانٌ رجلاً يتحدث عن شيء لم يحدث.

صدقه رجل آخر.

ثم نقله إلى ثالث.

وأضاف الثالث شيئاً.

ثم جاء رابع.

وبعد سنوات، لم يعد أحد يعرف أين بدأت القصة.

قالت الغزالة:

— لكنه يستطيع أن يكذب.

قال الأسد:

— نعم.

— والناس يستطيعون أن يصدقوا.

— نعم.

قال الثعلب:

— إذن الإنسان يستطيع أن يصنع واقعاً من شيء لم يحدث.

قال الأسد:

— يستطيع أن يجعل الآخرين يرونه واقعاً.

سكت الثعلب.

هذه المرة لم يعترض.

قال الفيل:

— وهل كان هناك من يذكره إذا نسي؟

أومأ الأسد.

— نعم.

— وكيف؟

— بالرسل، وبالأيات، وبالتذكير.

قالت البومة:

— وهل كانت أبواب العودة مفتوحة؟

— نعم.

— حتى بعد الظلم؟

— ما دام الإنسان حيًا، فطريق الرجوع موجود.

قال الثعلب:

— ومع ذلك استمر في الخطأ.

— نعم.

— لماذا؟

لم يجب الأسد.

ظل يحرق في النار.

قال الفيل:

— يبدو أنك تعرف الإجابة.

قال الأسد:

— أعرف أن الإنسان لم يكن يقاتل العالم وحده.

رفع الجميع رؤوسهم.

قال الذئب:

— من كان معه؟

لم يجب.

قالت البومة:

— ومن كان ضده؟

ظل الأسد صامتاً.

اقترب القرد.

— هل كان هناك من يستطيع أن يؤثر في اختياره؟

نظر الأسد إليه.

— يستطيع أن يؤثر.

قال الثعلب:

— لكنه لا يستطيع أن يختار بدلاً عنه.

ابتسم الأسد.

— أحسنت.

قال الفيل:

— إذن المسؤولية تبقى على الإنسان.

— نعم.

قال الثعلب:

— حتى لو زُيِّن له الخطأ؟

— نعم.

— حتى لو دُفِع إليه؟

— نعم.

— حتى لو قيل له إن ما يفعله حق؟

رفع الأسد عينيه إليه.

— هنا تبدأ أخطر أجزاء الحكاية.

سكنت الحيوانات.

لم تعد النار تضيء إلا نصف الدائرة.

قال الأسد:

— الإنسان يستطيع أن يخطئ وحده.

ثم أضاف:

— لكن هناك من عرف كيف يدخل من الباب الذي فتحه الإنسان بنفسه.

قال القرد:

— أي باب؟

نظر الأسد إلى الظلام.

— باب الاختيار.

وفي اللحظة نفسها، هبت ريح باردة بين الأشجار.

تحركت النار فجأة.

ثم خمدت.

ومن بعيد...

صدر صوت لم تعرف الحيوانات مصدره.

رفع الأسد رأسه.

ولم يقل شيئاً.

لكن الثعلب قال بهدوء:

— يبدو أن الحكاية بدأت فعلاً.

نظر الأسد إلى الظلام.

وقال:

— الآن فقط.

الفصل الثالث

الضيف الذي لا تراه الحيوانات

لم تنطفئ النار تماماً تلك الليلة.

كانت هناك جمرة صغيرة تحت الرماد.

وكانت الحيوانات قد تفرقت، إلا أن الأسد بقي وحده.

رفع رأسه.

كان الليل ساكناً.

ثم حدث شيء لم تره الحيوانات.

ولم يسمع به أحد.

في مكان لا تصل إليه حواسها، كان هناك من يراقب الإنسان.

لم يكن أسداً.

ولا ذنباً.

ولا طائرًا.

ولا شيئاً من عالم الحيوانات الذي تعرفه.

كان من عالم آخر.

عالم لا تراه العين، ولا تصل إليه الحواس كما تصل إلى الأشياء من حولها.

وكان اسمه:

إبليس.

في صباح اليوم التالي، بدأت الحكاية من مكان صغير جداً.

رجل يملك طعاماً.

وكان بجواره رجل آخر جائع.

نظر الرجل إلى الطعام.

ثم نظر إلى الجائع.

في البداية، كان سيقسمه معه.

لكن شيئاً ما تغير.

جاءته فكرة:

لماذا أعطيه؟

ثم جاءت أخرى:

ربما لا يستحق.

ثم ثالثة:

إذا أعطيته اليوم، سيطلب غداً.

نظر الرجل إلى الطعام مرة أخرى.

كان يستطيع أن يعطيه.

وكان يستطيع أن يمنعه.

مد يده.

وأغلق الوعاء.

راقبت الغزالة المشهد من بعيد.

قالت:

— ماذا حدث له؟

قال الأسد:

— لا أدري.

— لكنه كان سيعطيه.

— نعم.

— ثم غيّر رأيه.

— نعم.

قال القرد:

— هل أجبره أحد؟

نظر الأسد إلى الرجل طويلاً.

— لم أرَ أحداً.

وفي اليوم نفسه، وقع أمر آخر.

كان صبي قد كسر شيئاً في بيت أبيه.

خاف.

كان يستطيع أن يقول الحقيقة.

لكنه تخيل غضب أبيه.

فقال:

— لم أفعل.

مرت الكذبة.

نجا الصبي من العقاب.

ابتسم.

لكن الكذبة لم تنته.

في اليوم التالي احتاج إلى كذبة أخرى حتى يخفي الأولى.

ثم احتاج إلى ثالثة.

قالت الغزالة:

— لماذا يكذب؟

قال الأسد:

— لأنه خاف.

قالت:

— وهل الخوف يجبره؟

سكت الأسد.

ثم قال:

— لا.

— إذن لماذا فعل؟

— لأن الخوف يمكن أن يكون باباً.

— باباً إلى ماذا؟

نظر الأسد إلى الظلام.

— إلى شيء لا نراه.

في تلك الليلة، رأى الأسد شيئاً لم تستطع عيناه أن تراه.

لم يكن جسداً.

لم يكن ظلاً.

كان أقرب إلى فكرة تمر في الظلام.

اقتربت من إنسان جالس وحده.

لم تلمسه.

لم تدفعه.

لم تمسك بيده.

لكن الإنسان رفع رأسه فجأة.

كأن فكرة جديدة وُلدت في داخله.

نظر إلى رجل كان يكرهه.

وقال لنفسه:

لو اختفى هذا الرجل، لارتحت.

ثم عاد وسكت.

لم يفعل شيئاً.

اقتربت الفكرة مرة أخرى.

بل ربما لو قتلته، لانتهد المشكلة.

ارتجف الإنسان.

ثم ابتعد.

هنا تراجع ذلك الشيء.

لم ينجح.

وفي مكان آخر، انتظر.

بدأ الأسد يفهم.

ذلك الضيف لم يكن يملك يدًا يضرب بها.

ولا سيفًا.

ولا جيشًا.

ولا يستطيع أن يسحب الإنسان من مكانه بالقوة.

كان يفعل شيئًا آخر.

يهمس.

يزين الفكرة.

يجعل الخطأ يبدو صغيرًا.

والجريمة تبدو ضرورة.

والكذب يبدو نجاة.

والانتقام يبدو عدلاً.

والطمع يبدو حقًا.

والخوف يبدو حكمة.

والاستسلام يبدو سلامًا.

وكان أخطر ما في الأمر أن الإنسان يستطيع أن يظن أن الفكرة فكرته هو.

في صباح اليوم التالي، اجتمعت الحيوانات حول الأسد.

قال القرد:

— وجدنا شيئًا غريبًا.

— ماذا؟

— كلما كان الإنسان على وشك أن يفعل شيئًا سيئًا، ظهرت في رأسه فكرة.

قال الذئب:

— ربما هي طبيعته.

قال الفيل:

— لكننا رأينا الإنسان نفسه يفعل الخير.

قالت الغزالة:

— ورأيناه يتراجع عن الشر.

نظر الجميع إلى الأسد.

قال:

— لأن الفكرة ليست قرارًا.

— ماذا تعني؟

— قد تخطر الفكرة على الإنسان، لكنه لا يزال يستطيع أن يقول: لا.

صمت القرد.

ثم سأل:

— ومن الذي يضعها في رأسه؟

رفع الأسد عينيه.

— هنا تبدأ القصة التي لا تستطيع عيونكم رؤيتها.

في عالم آخر، كان إبليس يعرف ذلك جيدًا.

لم يكن يريد أن يجبر الإنسان.

كان يريد شيئاً أخطر.

كان يريد أن يختار الإنسان الخطأ بنفسه.

لأن الإنسان إذا أُجبر، عرف أنه لم يختار.

أما إذا زُيّن له الخطأ حتى أحبه، ثم اختاره، أصبح الخطأ جزءاً من إرادته.

وهكذا بدأ إبليس.

وعد.

خوّف.

زَيّن.

وسوس.

لكنه لم يملك الإنسان.

كان يستطيع أن يطرق الباب.

أما فتح الباب...

فكان بيد الإنسان.

ومع ذلك، لم تكن القصة من طرف واحد.

في كل مرة تأتي الوسوسة، كان هناك شيء آخر يصل إلى الإنسان.

تذكير.

آية.

صوت يدعو إلى التوقف.

إنسان يقول له:

— لا تفعل.

ضمير يستيقظ.

حادثة تكشف له نتيجة اختياره.

رسول يبلغه.

علامة توقظه من غفلته.

وبشارة تخبره أن الطريق لم يُغلق.

وإنذار يخبره أن للأفعال عواقب.

قال الأسد للحيوانات:

— هل فهتمم الآن؟

قالت الغزالة:

— ماذا؟

— أن الإنسان لم يُترك وحده أمام هذا الضيف.

وفي يوم من الأيام، وقف رجل أمام قومه.

لم يكن يملك جيشاً.

ولا قصرًا.

ولا مألًا كثيرًا.

لكنه كان يحمل رسالة.

قال لهم إن الإنسان ليس حرًا في أن يظلم كيف يشاء.

وإن القوة ليست رخصة للعدوان.

وإن المال ليس مبررًا لأكل حقوق الآخرين.

وإن وراء هذه الحياة حسابًا.

وإن هناك جنة لمن أحسن.

ونارًا لمن أفسد وأصر.

استمع بعضهم.

وغضب آخرون.

قال أحدهم:

— ومن أنت حتى تأمرنا؟

وقال آخر:

— نحن أحرار.

فرد الرجل:

— نعم.

ثم نظر إليهم.

— ولهذا أنتم مسؤولون.

راقبت الحيوانات من بعيد.

قال القرد:

— إذن الله أرسل لهم من يذكرهم؟

قال الأسد:

— نعم.

— لماذا؟

— لأن الرحمة سبقت العقوبة.

سكت الجميع.

ثم قال:

— كلما ابتعد الإنسان، فُتِحَ له باب للعودة.

— وكلما نسي، جاءه تذكير.

— وكلما خاف، جاءت البشارة.

— وكلما طغى، جاءه الإنذار.

— وكلما أخطأ، بقي أمامه طريق الإصلاح.

كانت الحيوانات تسمع لأول مرة شيئاً أعظم من قصة الإنسان.

كانت تسمع عن رحمة لا تتوقف.

لكن إبليس لم يتوقف.

كان يرى الإنسان يتعلم.

وكان يعرف أن الإنسان كلما ازداد علماً، ازدادت الأدوات التي يمكن أن يستخدمها.

فإذا فشل في إغراء رجل، ذهب إلى آخر.

وإذا رفض إنسان الكذب، بحث عن شخص آخر.

وإذا قاوم أحدهم الطمع، أغرى غيره بالقوة.

لم يكن يحتاج إلى الجميع.

كان يكفيهِ أن يجد بعضهم.

قال الأسد:

— تذكروا هذا جيداً.

سأله الفيل:

— ماذا؟

قال:

— الشر لا يحتاج دائماً إلى أن يسيطر على الجميع.

يكفي أن يجد من يحمل فكرته إلى الآخرين.

مرت السنوات.

وكبر الإنسان.

وتغيرت حياته.

بنى المدن.

جمع المال.

اخترع الأسلحة.

كتب القوانين.

تعلم كيف يخاطب عقول الملايين.

وصار يستطيع أن يفعل في يوم واحد ما كان يحتاج إلى سنوات ليفعله.

وكان إبليس يراقب.

لم يكن يصنع المدينة.

ولا يبني السلاح.

ولا يكتب الكتاب.

ولا يخترع الآلة.

الإنسان هو الذي يفعل.

لكن إبليس كان يعرف كيف يجعل بعض البشر يوجهون ما صنعوه نحو الطريق الذي يريده.

وهنا حدث التحول الأخطر.

لم تعد القضية:

هل يستطيع إبليس أن يغوي إنساناً؟

بال:

ماذا يحدث عندما تتحول الغواية إلى فكرة، والفكرة إلى سلوك، والسلوك إلى نظام، والنظام إلى ثقافة؟

في تلك الليلة، عادت الحيوانات إلى النار.

قال القرد:

— هل يستطيع إبليس أن يجبر الإنسان؟

قال الأسد:

— لا.

— هل يستطيع أن يمنعه من الخير؟

— لا.

— هل يستطيع أن يجعله شريرًا رغمًا عنه؟

— لا.

سكت القرد قليلاً.

ثم قال:

— إذن لماذا نخاف منه؟

نظر الأسد إليه.

وقال:

— لأن أخطر عدو ليس من يسلبك إرادتك.

ثم اقترب من النار.

— بل من يجعلك تستخدم إرادتك ضد نفسك.

ساد الصمت.

ثم سأل الصغير:

— وهل ينتصر؟

رفع الأسد رأسه.

نظر إلى النجوم.

ثم قال:

— لا أعرف.

وتوقفت الحيوانات عن التنفس لحظة.

تابع:

— لأئك لم تسأل السؤال الصحيح.

— فما السؤال الصحيح؟

قال الأسد:

— ليس: هل يستطيع إبليس أن يضل الإنسان؟

ثم نظر إلى النار.

— بل:

كم مرة يستطيع الإنسان أن يسمع الهمس... ثم يقول: لا؟

لم يجب أحد.

وفي مكان بعيد، لم يسمعه أحد، كان إبليس يبتسم.

فقد عرف أن المعركة الحقيقية لم تبدأ بعد.

الفصل الرابع

حين أصريح العصيان فكرة

لم يكن إبليس يحتاج إلى جيش.

كانت هذه أولى الحقائق التي اكتشفها.

فالجيش يحتاج إلى جنود.

والجنود يحتاجون إلى أوامر.

والأوامر تحتاج إلى قائد.

أما الفكرة...

فيمكنها أن تمشي وحدها.

لم يبدأ الأمر بالإنسان.

بدأ بالعصيان.

كان إبليس قد عصى أمر ربه.

رفض.

وجادل.

واختار طريقه.

وكان يستطيع أن يتوقف.

وكان يستطيع أن يعود.

لكنه لم يفعل.

ومنذ تلك اللحظة، لم يعد يريد أن يكون عاصياً وحده.

اتخذ قراراً آخر.

أن يجعل للإنسان نصيباً من عصيانه.

لا أن يجبره عليه.

بل أن يجعله يختار الطريق بنفسه.

كان الإنسان قد تعلم كيف يصنع الأشياء.

ثم تعلم كيف يصنع الأفكار.

وهنا تغير كل شيء.

فإبليس لا يستطيع أن يجبر الإنسان.

لكنه يستطيع أن يهمس.

فكرة صغيرة.

رغبة.

خوف.

طمع.

انتقام.

ثم اكتشف أن الإنسان يستطيع أن يفعل بالفكرة أكثر مما يستطيع هو نفسه.

فالإنسان يستطيع أن يقول لآخر:

— افعل.

ويستطيع أن يقنعه بأن ما يفعله صواب.

ويستطيع أن يكتب الفكرة.

ويعلمها.

وينقلها إلى أبنائه.

ويبني حولها جماعة.

ثم قانونًا.

ثم مؤسسة.

ثم مجتمعًا كاملاً.

وهكذا بدأ شيء جديد في قصة الإنسان.

العصيان لم يعد فعلاً فرديًا.

بدأ يتحول إلى منهج.

لكن إبليس لم يكن يريد الجميع.

لم يكن بحاجة إلى الجميع.

كان يريد نصيبًا.

وهنا قال:

﴿لَتُخَذِّلَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾

توقفت الحيوانات.

قال القرد:

— ما معنى نصيب؟

قال الأسد:

— جزء.

— جزء من ماذا؟

— من البشر.

— ولماذا لا يأخذهم جميعًا؟

نظر الأسد إلى النار.

ثم قال:

— لأنه لا يحتاج إلى الجميع.

— وماذا يفعل بهذا الجزء؟

قال الأسد:

— يجعله يحمل الفكرة.

— وأين يصل بها؟

— إلى غيره.

سكت قليلاً، ثم قال:

— وقد يبدأ الأمر بإنسان واحد.

لم يقل إبليس:

سأجبرهم.

بل أراد أن يجعلهم يختارون.

أن يسمعوا الهمس.

ثم يقتنعوا.

ثم يتحركوا.

ثم يظنوا أن ما يفعلونه قرارهم وحدهم.

وهذه كانت قوة الفكرة.

أنها لا تمشي وهي تقول:

أنا فكرة إبليس.

بل تأتي في صورة أخرى.

مصلحة.

حرية.

ضرورة.

تقدم.

أمن.

خوف.

حق.

انتقام.

نجاة.

وكان الإنسان قادرًا على إعطاء أفعاله ألف اسم.

لكن الاسم لا يغير الحقيقة.

وفي مكان من الأرض، ظهر رجل اسمه إسرائيل.

لم يكن إبليس بحاجة إلى أن يمسك بيده.

ولم يكن بحاجة إلى أن يأمره أمام الناس.

كان يكفي أن يفتح له بابًا.

فكرة.

ثم فكرة أخرى.

اختيارًا صغيرًا.

ثم اختيارًا أكبر.

حتى أصبح الطريق الذي اختاره إسرائيل طريقًا يمكن أن يسير فيه آخرون.

كان إسرائيل إنسانًا.

وكان يستطيع أن يقول:

لا.

لكنه اختار.

وهنا بدأ النصيب يأخذ شكله.

لم يكن النصيب قبيلة ظهرت فجأة.

ولم يكن اسمًا جاهزًا منذ البداية.

كان مشروعًا يبدأ باختيار.

ثم ينتقل إلى ذرية.

ثم إلى جماعة.

ثم إلى هوية.

ثم إلى منظومة.

وكان إبليس يعرف أن الفكرة إذا خرجت من عقل رجل واحد، ثم دخلت في أبناء الرجل، فإنها لم تعد فكرة رجل.

لقد بدأت تصبح تاريخًا.

ومع مرور الزمن، رأى الأسد صورًا كثيرة للإنسان.

رجل يتحدث أمام مجموعة من الناس:

— إذا أردتم القوة، فلا تثقوا بأحد.

وفي مكان آخر، رجل يقول:

— إذا أردتم المال، خذوا قبل أن يأخذ الآخرون.

وفي مدينة أخرى، حاكم يقول:

— لكي نحميكم، يجب أن نسيطر عليكم.

وفي مكان آخر، عالم يقول:

— إذا استطعنا فعل شيء، فلماذا نسأل إن كان ينبغي لنا أن نفعله؟

وفي سوق بعيد، تاجر يقول:

— الربح هو الدليل الوحيد على النجاح.

وفي ساحة أخرى، قائد يقول:

— من يخالفنا عدو.

وفي مكان آخر، مفكر يكتب:

— الحقيقة هي ما يقتنع به الناس.

كانت الكلمات مختلفة.

والوجوه مختلفة.

والبلدان مختلفة.

لكن شيئاً واحداً كان يجمعها.

كل واحد كان يضع جزءاً صغيراً من بناء أكبر منه.

في تلك الليلة، سألت الغزالة:

— هل يعرفون بعضهم؟

قال الأسد:

— ليس بالضرورة.

— وهل يعرفون أنهم يخدمون الفكرة نفسها؟

— بعضهم يعرف.

— والآخرين؟

قال الأسد:

— قد لا يعرفون شيئاً.

ثم نظر إلى النار.

— وهذه هي الحيلة.

فإبليس لم يكن بحاجة إلى أن يقف في وسطهم.

لم يكن بحاجة إلى أن يقول للعالم:

أنا وراءكم.

كان يكفي أن يجد في كل مكان من يحمل جزءاً من الفكرة.

عالم بيرر.

ومخترع يصنع أداة.

وتاجر يمولها.

وحاكم يحميها.

وقائد يستخدمها.

وإعلامي بيررها.

ومفكر يمنحها لغة.

ومجموعة من الناس تكررها حتى تصبح مألوفة.

ثم يأتي يوم لا يسأل فيه أحد:

من بدأ؟

لأن الفكرة أصبحت أكبر من صاحبها.

كان الإنسان يتقدم.

مدن أكبر.

طرق أطول.

سفن تعبر البحار.

كتب تحفظ المعرفة.

جيوش منظمة.

أسواق واسعة.

علوم جديدة.

وأدوات لم يعرفها أسلافه.

وكان كل تقدم يحمل وجهين.

يمكن للعلم أن ينقذ حياة.

ويمكن أن يتحول إلى وسيلة للقتل.

يمكن للمال أن يطعم مدينة.

ويمكن أن يتحول إلى وسيلة لإخضاعها.

يمكن للكلمة أن توقظ إنساناً.

ويمكن أن تخدّر أمة.

يمكن للتكنولوجيا أن تحرر الإنسان من المشقة.

ويمكن أن تجعل السيطرة عليه أسهل.

لم تكن الأدوات شريرة.

لكن الإنسان يستطيع أن يضعها في خدمة أي فكرة.

وهنا كان إبليس ينتظر.

قال الفيل:

— ولكن لماذا يحتاج إبليس إلى البشر إذا كان يستطيع أن يغويهم بنفسه؟

أجاب الأسد:

— لأن الإنسان يستطيع أن يفعل بالإنسان ما لا يستطيع إبليس أن يفعله بيده.

— ماذا تقصد؟

قال الأسد:

— يستطيع أن يبني له السجن.

— ويستطيع أن يصنع له السلاح.

— ويستطيع أن يكتب له القانون.

— ويستطيع أن يغيّر له التاريخ.

— ويستطيع أن يقنعه بأن السجن حرية، وأن الظلم ضرورة، وأن الكذب حقيقة.

سكت الفيل.

فهم أخيرًا.

إبليس يستطيع أن يهمس.

لكن الإنسان يستطيع أن يجسّد الهمس في العالم.

ومع مرور الزمن، لم تعد الفكرة تحتاج إلى أشخاص محددين.

بدأت تظهر في الكتب.

وفي المدارس.

وفي الأسواق.

وفي قصور الحكام.

وفي ساحات القتال.

وفي وسائل نقل الأخبار.

وفي مراكز العلم.

وفي كل مكان يمكن أن تتشكل فيه عقول البشر.

وهنا بدأ معنى النصيب المفروض يظهر بصورة مختلفة.

لم يعد مجرد أفراد متفرقين.

كان النصيب يتجمع.

وكان له أصل.

وكان له طريق.

وكان له امتداد.

بدأ من اختيار.

ثم انتقل إلى ذرية.

ثم انقسمت الذرية.

منهم من رفض الطريق.

ومنهم من تبع الأب.

ومنهم من رأى في اختيار إسرائيل بدايةً لطريق يجب ألا يُترك.

وهنا بدأ النصيب يتحول من أفراد إلى جماعة.

بدأ الأسد يرسم للحيوانات صورة لم تستطع أن تنساها.

قال:

— تخيلوا شبكة ضخمة.

في طرفها عالم.

وفي طرف آخر حاكم.

وفي طرف ثالث مخترع.

وفي طرف رابع تاجر.

وفي طرف خامس قائد.

وفي طرف سادس رجل يكتب.

وفي طرف سابع رجل يذيع.

لا يعرف أحد منهم الشبكة كلها.

ولا يرى أحد الصورة كاملة.

لكن كل واحد يمسك بخيط.

وكل خيط يؤدي وظيفة.

قال القرد:

— ومن يحركهم؟

قال الأسد:

— أحياناً لا يحتاج أحد إلى تحريكهم.

— كيف؟

— عندما تصبح الفكرة في داخلهم، يبدأون بتحريك أنفسهم.

وهنا كان أعظم انتصار للفكرة.

أن تتحول من أمر يأتي من الخارج إلى قناعة تسكن الداخل.

لا يحتاج الإنسان بعدها إلى من يقول له:

— اكذب.

يكفي أن يقتنع بأن الحقيقة لا تنفعه.

ولا يحتاج إلى من يقول له:

— اظلم.

يكفي أن يعتقد أن الظلم يحمي مصالحه.

ولا يحتاج إلى من يقول له:

— اقتل.

يكفي أن يقتنع أن الآخر ليس إنساناً مثله.

ولا يحتاج إلى من يقول له:

— غير.

يكفي أن يؤمن أن كل ما يملكه الإنسان من حدود يجب أن يكسر.

عندها تصبح الفكرة أقوى من صاحبها.

لكن إبليس لم يتوقف عند النصيب.

فقد كشف بعد ذلك كيف سيأخذ هذا النصيب.

قال:

﴿وَأَضَلْنَهُمْ وَأَمْنَيْنَهُمْ وَأَمَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾

توقفت الحيوانات.

قالت الغزالة:

— لكنه قال: «وَأَضَلْنَهُمْ».

قال الأسد:

— نعم.

— وقال: «وَأَمْنَيْنَهُمْ».

— نعم.

— ثم «وَأَمَرْنَهُمْ».

— نعم.

— لكنه قال بعدها: «فليغيرن».

نظر الأسد إليها.

وقال:

— وهنا يظهر الإنسان.

إبليس يستطيع أن يضل.

أن يمني.

أن يأمر.

لكن الذي يغير في عالم الإنسان هو الإنسان نفسه.

عندها فهمت الحيوانات العلاقة.

العصيان كان البداية.

والنصيب كان الهدف.

والإغواء كان الوسيلة.

والإنسان كان الأداة التي يمكن أن يتحول بها الوعد إلى واقع.

لم يكن إبليس يريد أن يحمل المطرقة.

كان يريد أن يجد من يحملها.

لم يكن يريد أن يبني المدينة.

كان يريد من يبنّيها وفق الفكرة.

لم يكن يريد أن يصنع السلاح.

كان يريد من يصنعه ويقرر أين يوجهه.

لم يكن يريد أن يكتب التاريخ بيده.

كان يريد من يكتبه.

وهكذا بدأ العصيان يتحول من حدث إلى فكرة.

ثم من فكرة إلى منهج.

ومن منهج إلى شبكة.

ومن شبكة إلى جماعة.

ومن الجماعة إلى منظومة.

ومن المنظومة إلى دين.

ومن الدين إلى هوية.

ومن الهوية إلى قوة.

وكانت هذه هي اللحظة التي أصبح فيها النصيب المفروض شيئاً يمكن أن يستمر حتى بعد غياب أصحابه الأوائل.

لم يعد الأمر متعلقاً بإبليس وحده.

ولم يعد متعلقاً بإسرائيل وحده.

لقد أصبحت الفكرة قادرة على أن تورث نفسها.

لكن شيئاً آخر حدث.

لم يكن كل البشر جزءاً من هذا الطريق.

كان هناك من رفض.

عالم يقول:

— ليس كل ما نستطيع فعله ينبغي أن نفعله.

وحاكم يرفض أن يجعل الخوف قانوناً.

وتاجر يرفض أن يبيع ما يقتل الناس.

ومخترع يرفض أن يجعل علمه أداة للظلم.

وجندي يرفض أن يقتل بريئاً.

ومفكر يقول:

— لا أريد فكرة تمنحني القوة إذا كانت تسلبني إنسانيّتي.

وأناس عاديون لا يملكون شيئاً إلا قدرتهم على قول:

لا.

وهؤلاء كانوا المشكلة.

لأن الإنسان لا يصبح جزءاً من النصيب لمجرد أنه تعرض للإغواء.

كان عليه أن يختار.

وهنا ظهر الحد الفاصل.

النصيب الذي أراده إبليس ليس قدرًا يُفرض على الإنسان منذ ولادته.

إنه نصيب يسعى إبليس إلى أخذه من البشر عبر الإغواء والاختيار.

فإبليس يعرض.

والإنسان يختار.

إبليس يزيّن.

والإنسان يقتنع.

إبليس يعد.

والإنسان يطلب.

إبليس يخوّف.

والإنسان يطيع خوفه.

إبليس يوسوس.

والإنسان يحول الوسوسة إلى قرار.

ولهذا قال الأسد:

— لا تخطوا بين أن يُعرض عليك الطريق، وبين أن تُجبر على السير فيه.

لكن النصيب، مع إسرائيل، لم يعد مجرد أفراد.

بدأ يتخذ اسمًا.

ثم هوية.

ثم جماعة.

ثم دينًا.

وهنا أصبح أخطر.

لأن الإنسان يستطيع أن يرفض فكرة.

لكنه قد يتردد في رفض ما وُلد عليه.

والإنسان يستطيع أن يناقش شخصًا.

لكنه قد يخاف أن يناقش الجماعة التي ينتمي إليها.

والإنسان يستطيع أن يترك رأيًا.

لكن ماذا يحدث عندما يتحول الرأي إلى مقدس؟

هنا لم تعد المسألة:

ماذا اختار إسرائيل؟

بل:

ماذا سيحدث عندما يصبح اختيار إسرائيل ميراثًا؟

وهكذا بدأ الصراع يأخذ شكلًا جديدًا.

لم يعد بين إنسان وإبليس فقط.

أصبح بين:

فكرة وفكرة.

حقيقة وخدا ع.

رحمة وقسوة.

عدل واستعلاء.

إيمان ويأس.

وعي وغفلة.

وضمير يصرخ:

توقف.

وصوت آخر يقول:

لا أحد يراك.

ثم ظهر شيء أخطر.

أن يصبح صوت الجماعة أقوى من صوت الضمير.

وفي ليلة أخرى، عاد الأسد إلى النار.

قال القرد:

— الآن فهمت.

— ماذا فهمت؟

— إبليس لا يريد أن يحكم البشر بنفسه.

ابتسم الأسد.

— وماذا يريد؟

قال القرد:

— يريد أن يجعل البشر يحكم بعضهم بعضًا بالطريقة التي يريدها.

لم يجب الأسد.

لأن القرد كان قد وصل إلى شيء مهم.

فقال الأسد:

— ربما.

ثم نظر إلى النار.

— لكن القصة لم تصل بعد إلى أخطر مراحلها.

— وما الأخطر؟

رفع الأسد رأسه.

وقال:

— عندما يجد إبليس من البشر من لا يكتفي بحمل فكرته...

ثم سكت.

— بل يبدأ في تطويرها.

ساد الصمت.

كانت الحيوانات تنتظر إلى بعضها.

فهمت أن الأمر لم يعد مجرد إنسان أغواه إبليس.

لقد أصبح هناك احتمال أخطر:

أن يصبح الإنسان نفسه شريكاً في صناعة الفكرة.

ثم قال الأسد:

— وعندما تصبح الفكرة ديناً، تصبح أقوى من صاحبها.

نظر الجميع إليه.

— كيف؟

أجاب:

— عندما لا يعود الإنسان يعرف أنها فكرة بدأت باختيار شخص، بل يولد وهو يظن أنها حقيقة لا يجوز أن يسأل عنها.

اشتعلت النار.

وظلت الحيوانات صامتة.

فقد أدركت أن القصة لم تعد تبحث عن أول إنسان سمع همسة إبليس.

بل عن الجماعة التي أصبحت ذلك النصيب.

وعن الرجل الذي بدأت معه الحكاية.

إسرائيل.

الفصل الخامس

إسرائيل والانقسام

كان إسرائيل قد اختار.

لم يكن اختياره مجرد موقف عابر.

لقد فتح باباً.

وكان إبليس ينتظر خلف الباب.

لم يكن يريد إسرائيل وحده.

كان يريد ما سيأتي بعده.

ذريته.

مرت السنوات.

ثم مات إسرائيل.

لكن الفكرة لم تمت.

انتقلت إلى أبنائه.

ثم إلى أبنائهم.

ثم أصبحت ذاكرة تتناقلها الأجيال.

وفي البداية لم تكن الذرية سواء.

كان بينهم من تذكر تحذير الله.

ومنهم من رأى أن الطريق الذي اختاره أبوهم هو الطريق الصحيح.

ومنهم من تردد.

ومنهم من رفض.

كان الصراع في البداية داخل البيوت.

ثم خرج إلى القبائل.

ثم إلى الجماعة.

ثم أصبح صراعًا على مستقبل بني إسرائيل.

قال أحد الأبناء:

— حذرنا الله من هذا الطريق.

فأجابه آخر:

— أبونا عرف ما لم تعرفه.

قال الأول:

— لكن أبانا اختار.

قال الآخر:

— ونحن نختار معه.

وهنا ظهر السؤال الذي سيغير تاريخهم:

هل يتبع الأبناء أباهم... أم يتبعون ما جاءهم من الله؟

انقسم بنو إسرائيل.

فئة قالت:

— نسمع ونطيع.

وفئة قالت:

— نحن أحق.

وفئة ثالثة وقفت بين الفريقين، تنتظر أيهما ينتصر.

لكن الصراع لم يبقَ كلامًا.

بدأت الفئة المنحرفة تستخدم القوة.

ومن اعترض أصبح خصمًا.

ومن حذر أصبح عدوًا.

ومن رفض أصبح خائناً.

وبدأ الإيمان يتحول إلى اختبار حقيقي.

كانت الفئة المؤمنة تعرف أن الأمر أكبر من أبيهم.

لم تقل:

— إسرائيل أبونا، إذن كل ما فعله حق.

بل قالت:

— الأب لا يصبح معياراً للحق لمجرد أنه أب.

لكن الفئة الأخرى فعلت العكس.

بدأت ترفع إسرائيل فوق النقد.

تحول اختياره إلى مثال.

ومثاله إلى منهج.

ومنهجه إلى هوية.

ثم بدأت تقول:

من خالف طريق إسرائيل فقد خالفنا نحن.

كان إبليس يراقب.

هذه المرة لم يحتج إلى همس كثير.

لقد وجد شيئاً أخطر من الفرد:

جماعة تؤمن بالفكرة وتدافع عنها.

اقترب من الفئة المنحرفة.

لم يقل لهم:

— اتبعوني.

بل تركهم يعتقدون أنهم يتبعون أنفسهم.

قال لهم:

— أنتم أصحاب الطريق.

— أنتم أصحاب المعرفة.

— أنتم الذين تعرفون ما لا يعرفه الآخرون.

— أنتم المختارون.

وكانت الكلمات تجد طريقها إلى القلوب.

ثم وقع الصدام.

لم يعد ممكناً أن تعيش الفئتان كما كانتا.

الفئة المؤمنة تريد العودة إلى تحذير الله.

والفئة المنحرفة تريد تثبيت طريق إسرائيل.

كل طرف يرى أن الآخر يهدد مستقبل الجماعة.

وبدأت المواجهة.

سقطت البيوت.

تفرقت العائلات.

وقتل بعضهم بعضاً.

وفي النهاية، انتهى الصراع بانتصار الفئة المنحرفة وقضاء الفئة المؤمنة التي وقفت في وجهها.

لم يكن ذلك مجرد انتصار عسكري.

كان انتصاراً على الذاكرة.

فبعد أن اختفى المعارضون، لم يعد هناك من يروي القصة من داخل الجماعة.

وهنا بدأ إبليس يفكر بطريقة جديدة.

جلس مع إسرائيل في عالم لا تراه الحيوانات.

قال له:

— انتهى الصراع.

قال إسرائيل:

— لم ينته.

— ماذا بقي؟

قال إسرائيل:

— بقي أن نحفظ الطريق.

ابتسم إبليس.

— إذن لا تجعلوه طريقاً فقط.

— ماذا نجعله؟

قال:

— ديناً.

لم يعد المطلوب أن يقول الأبناء:

— نحن نتبع اختيار أبينا.

كان المطلوب شيئاً أكبر.

أن يصبح اختيار الأب نظاماً دينياً.

أن تصبح أفكاره تفسيراً.

وتفسيره كتاباً.

وكتابه مرجعاً.

ومرجعه هوية.

وأن يصبح الخروج عنه خروجاً عن الجماعة والدين.

وهكذا بدأ العمل.

جمعوا الأفكار.

رتبوا الروايات.

حفظوا التأويلات.

أضافوا الشروح.

أنشأوا طبقات من المعرفة لا يصل إليها الجميع.

ثم ظهرت كتب وأسرار وتعاليم خاصة.

كانوا يقولون:

— ليس كل شيء للعامة.

هناك معرفة للخواص.

ومعرفة لمن فوقهم.

ومعرفة لا يصل إليها إلا من يدخل جماعتهم.

وبمرور الزمن أصبحت هذه المنظومة تُعرف في عالم الرواية باسم:

الكبالة.

ثم أضيفت إليها طبقات أخرى من التقاليد والتفسيرات، حتى صار لها نظام واسع من النصوص والأحكام والروايات.

وكان من أبرزها:

التلمود.

وهكذا لم يعد طريق إسرائيل مجرد ذكرى قديمة.

أصبح منظومة فكرية ودينية لها نصوصها ومراجعها ورجالها.

وفي اللحظة نفسها تقريباً، ظهر الاسم الجديد.

لم يعودوا يقولون:

— نحن أتباع إسرائيل فقط.

بل احتاجوا إلى اسم يميز جماعتهم الجديدة.

اسماً يصبح راية.

وهوية.

وانتماء.

فسموا أنفسهم:

اليهود.

ومن هنا بدأت مرحلة جديدة.

لم تعد المسألة مجرد ذرية رجل اختار طريقاً.

بل أصبحت ديناً له مؤسساته ورجاله ونصوصه وتفسيراته.

وفي الجانب الآخر، كان القرآن سيأتي لاحقاً ليضع نفسه في الرواية في موقع مختلف تماماً.

ليس بوصفه كتاب أسرار مغلقة على طبقة من البشر.

بل كتاباً يهدي الإنسان:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾

طريقاً يصفه النص بأنه:

الرشد.

والصراط المستقيم.

وهنا يصبح الصراع في الرواية أعمق من صراع شعب مع شعب.

إنه صراع بين منظومتين للمعرفة والهداية.

منظومة تجعل الحقيقة طبقات مغلقة، يحتكرها أصحابها ويعيدون تفسيرها لمصلحة الجماعة.

ومنظومة تضع النص أمام الإنسان وتدعوه إلى النظر والتدبر والبرهان.

كان إبليس يعرف أن ما حدث أكبر من انتصار فئة على فئة.

لقد تحول العصيان إلى مدرسة.

والمدرسة إلى منظومة.

والمنظومة إلى دين.

والدين إلى هوية.

والهوية إلى قوة تستطيع أن تعيش عبر القرون.

وهنا قال إسرائيل:

— الآن أصبح لنا شيء لا يموت بموت الإنسان.

فأجابه إبليس:

— ماذا؟

قال:

— فكرة تتوارثها الأجيال.

ابتسم إبليس.

وقال:

— الآن فقط بدأ النصيب.

وفي تلك اللحظة، لم تعد الحيوانات ترى مجرد رجل اسمه إسرائيل.

كانت ترى بداية شيء أكبر.

مشروعًا سيبحث عن العلم والمال والسلطة والتأثير.

وكان الاسم التالي الذي سيظهر في هذه القصة:

السامري.

من فكرة إلى منظومة

كان انتصار الفئة المنحرفة هو البداية، لا النهاية.

فقد اكتشف إسرائيل وإبليس أن الفكرة إذا بقيت مجرد فكرة، يمكن أن يموت صاحبها وتموت معه.

أما إذا تحولت إلى منظومة دينية، فإنها تستطيع أن تعيش بعده.

وهنا بدأ العمل الحقيقي.

لم يعد السؤال:

كيف نقنع الناس بفكرة إسرائيل؟

بل:

كيف نجعل الفكرة دينًا يتعلمه الأبناء من آبائهم؟

بدأوا أولاً بجمع ما يخدم الفكرة.

قصة هنا.

وتفسيرًا هناك.

ورواية من الماضي.

وتأويلًا لحدث.

وحكمًا يبرر سلوكًا.

ثم ربطوا هذه الأشياء ببعضها حتى أصبحت منظومة متكاملة.

لم تعد الفكرة تقول:

«افعلوا هذا لأن إسرائيل اختاره.»

بل أصبحت تقول:

«هذا هو الحق.»

ثم:

«هذا هو الدين.»

ثم:

«هذا ما يجب أن تؤمنوا به.»

وهنا حدث التحول.

اختفى الإنسان الذي بدأ الفكرة خلف المنظومة التي صنعها.

ثم احتاجت المنظومة إلى من يحفظها.

فنشأت طبقة تعرف النصوص والتأويلات.

تعلمها للصغار.

وتشرحها للكبار.

وتحدد المقبول والمرفوض.

وتقول للناس:

— هذا تفسير صحيح.

— وهذا تفسير باطل.

— هذا من الدين.

— وهذا خروج عن الدين.

وبمرور الزمن لم يعد الطفل يعرف الفكرة بوصفها اختياراً قديماً قام به رجل.

كان يولد فيجدها حوله:

في البيت.

وفي التعليم.

وفي الشعائر.

وفي الأحكام.

وفي القصص.

وفي لغة الجماعة.

وفي تصورهم لأنفسهم وللآخرين.

وهكذا أصبحت الفكرة بيئة يعيش داخلها الإنسان قبل أن يسأل عنها.

ثم جاءت الخطوة الأخطر.

لم تعد المنظومة تكتفي بتفسير الماضي.

بدأت تفسر الحاضر والمستقبل.

إذا وقع حدث، وجدوا له تفسيرًا.

إذا اختلف شخص، وجدوا له حكمًا.

إذا ظهر سؤال جديد، صنعوا له جوابًا من داخل المنظومة.

وإذا اعترض أحد، لم يعد الاعتراض على رأي إسرائيل.

أصبح الاعتراض على الدين نفسه.

وهنا أصبحت المنظومة أقوى من مؤسسها.

قال القرد:

— إذن كيف تحولت الفكرة إلى دين؟

قال الأسد:

— عندما أصبحت الفكرة تولد مع الإنسان، وتعلّمه كيف يفكر، وتحدد له ما يصدق وما يكذب، وما يقبل وما يرفض، ومن يحق له أن يفسر.

قال الفيل:

— أي أنها لم تعد فكرة يؤمن بها الإنسان؟

قال الأسد:

— بل أصبحت منظومة تنتج الإنسان الذي يؤمن بها.

سكنت الحيوانات.

كانت هذه الجملة أثقل من كل ما سبقها.

ثم جاءت الكتب.

لم تعد المعرفة محفوظة في ذاكرة الأشخاص وحدهم.

بدأت تُكتب.

وتُجمع.

وترتب.

وتُفسر.

وتتناقلها الأجيال.

وظهرت طبقات من النصوص والتقاليد والتأويلات، حتى أصبحت المنظومة أكثر تعقيداً من الفكرة الأصلية نفسها.

وفي عالم الرواية حملت هذه الطبقات أسماء أصبحت لاحقاً جزءاً من هوية ذلك الدين:

الديبالات.

ثم:

التلوّد.

وهكذا لم يعد أتباع إسرائيل يقولون:

«نحن نحافظ على فكرة رجل قديم.»

بل أصبحوا يقولون:

«نحن أصحاب دين.»

وهنا اكتملت الحلقة:

الاختيار → الفكرة → التعليم → التفسير → النصوص → المؤسسة → الدين → الهوية.

نظر الأسد إلى الحيوانات وقال:

— هذه هي اللحظة التي يجب ألا تنسوها.

لم يعد إبليس بحاجة إلى أن يقف خلف كل إنسان ويهمس له.

لقد أصبح هناك نظام كامل يحمل أجزاء من الفكرة.

علماء يشرحونها.

ومعلمون ينقلونها.

ومؤسسات تحفظها.

وأَتباع يدافعون عنها.

وأَجيال تولد داخلها.

وهكذا أصبح العصيان الذي بدأ باختيار إبليس قادرًا على الاستمرار حتى عندما لا يعرف الإنسان شيئًا عن إبليس أصلًا.

وهنا أدركت الحيوانات خطورة ما حدث.

فالخطر لم يعد في أن يقول إبليس للإنسان:

اعصِ.

بل في أن يولد الإنسان داخل منظومة تقول له:

هذا هو الحق.

ولا تخبره كيف بدأت.

ولا تسمح له أن يسأل:

ومن أين جاء هذا الحق؟

ساد الصمت حول النار.

رفع القرد رأسه.

— ولكن إذا أصبحت الفكرة دينًا، فماذا ينقصها؟

نظر الأسد إليه طويلاً.

ثم قال:

— القوة.

قال الفيل:

— أليست القوة قد بدأت بالفعل؟

هز الأسد رأسه.

— القوة شيء.

— وماذا ينقص؟

قال:

— أن تتحول المعرفة إلى قدرة.

سألت الغزالة:

— ومن يفعل ذلك؟

نظر الأسد إلى النار.

وقال:

— إنسان آخر.

ثم أضاف:

— إنسان لا يكتفي بأن يؤمن بالفكرة.

— بل يعرف كيف يصنع منها شيئاً.

سكت لحظة.

ثم قال:

— السامري.

الفصل السادس

الفكرة التي أصبحت ميراثاً

لم يعد إسرائيل وحده.

كان قد اختار.

ثم مضى.

لكن الاختيار لم يمضِ معه.

بقي.

وتحوّل شيئاً فشيئاً من فعلٍ قام به إنسان...

إلى فكرةٍ تعيش بعد الإنسان.

ثم إلى ذاكرة.

ثم إلى ميراث.

ثم إلى هوية.

وهنا بدأ الخطر الحقيقي.

فالإنسان يموت.

أما الفكرة...

فلا تموت بسهولة.

قد تنتقل من الأب إلى الابن.

ومن الابن إلى الحفيد.

وقد يولد الإنسان داخلها قبل أن يسأل عنها.

فيجد نفسه يحمل شيئاً لم يختره.

ويحمي شيئاً لم يختبره.

ويخاصم من أجله...

دون أن يعرف كيف بدأ.

وهكذا يمكن أن نفهم واحدة من أكثر العبارات إثارة في القصة:

بنو إسرائيل.

لم يعد الحديث عن إسرائيل وحده.

دخلت الجماعة.

دخلت الذرية.

دخل التاريخ.

وأصبح السؤال مختلفاً:

هل بقي اختيار الأب اختياراً؟

أم أصبح ميراثاً؟

القرآن لا يروي لنا كل التفاصيل التي قد يتوقعها القارئ.

لا يخبرنا كيف انتقلت الفكرة من لحظة إلى أخرى.

ولا يقدم لنا سيرة متصلة لإسرائيل وأبنائه.

بل يفعل شيئاً أكثر إثارة:

يترك لنا أثراً.

كآثار أقدام في طريق قديم.

علينا أن نتبعها.

ومن هنا تبدأ المشكلة.

فالقرآن حين يتحدث عن بني إسرائيل...

لا يقدم صورة واحدة.

ولا يحكم عليهم حكماً واحداً.

فبينهم من آمن.

ومنهم من كفر.

ومنهم من أفسد.

ومنهم من استقام.

والقرآن يقولها بوضوح:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾

وهذه الآية وحدها تمنعنا من ارتكاب خطأ خطير:

أن نحول القصة إلى حكم على كل إنسان وُلد داخلها.

فالإنسان ليس مسؤولاً عن الاسم الذي ورثه.

وإنما عن اختياره.

لكن إذا كان الأمر كذلك...

فلماذا ظل القرآن يعود إلى بني إسرائيل؟

لماذا تتكرر قصتهم؟

لماذا تتكرر الإشارة إلى العهد؟

وإلى الميثاق؟

وإلى الآيات؟

وإلى الانحراف؟

وإلى القتل؟

وإلى الإفساد؟

وإلى العلو؟

كأن القرآن لا يريد منا أن نقرأ القصة باعتبارها تاريخاً انتهى.

بل باعتبارها نموذجاً يتكرر.

وهنا يظهر السؤال الأصعب:

ماذا لو لم تكن المشكلة في البداية هي الجماعة؟

ماذا لو كانت المشكلة في الفكرة التي دخلت الجماعة؟

فالفكرة تستطيع أن تعيش داخل جماعة.

ثم تصبح الجماعة حارسة للفكرة.

ثم يصبح الدفاع عن الفكرة دفاعاً عن الذات.

وعندها...

إذا شككت في الفكرة،

يشعر الإنسان أنك شككت فيه هو.

وهنا يصبح الخروج من الفكرة أصعب.

ليس لأنها صحيحة.

بل لأنها أصبحت جزءاً من الهوية.

وربما لهذا السبب كان القرآن يعيد الإنسان دائماً إلى الاختيار الفردي.

لا يقول له:

أنت ابن فلان، إذن أنت كذا.

بل يسأله عما فعل.

وعما اختار.

وعما كسب.

وعما أفسد.

وعما أصلح.

لكن شيئاً آخر كان يحدث في الخلفية.

شيء لا يظهر منذ البداية.

إبليس.

لقد انتهت لحظة الاختيار الأولى.

لكن المعركة لم تنتهِ.

فالشيطان لا يحتاج أن ينتصر في كل جيل.

يكفيه أحياناً أن يجعل الفكرة تنتقل.

من إنسان...

إلى أسرة.

ومن أسرة...

إلى جماعة.

ومن جماعة...

إلى تاريخ.

وعندها تصبح المهمة أسهل.

لأن الإنسان الجديد لا يرى بداية الفكرة.

يرى فقط أنها كانت موجودة قبله.

وهذه هي أخطر نقطة.

أن يصبح الموروث دليلاً على نفسه.

نؤمن به...

لأن آبائنا آمنوا به.

ثم يأتي أبنائنا...

فيؤمنون به لأننا آمنّا به.

وهكذا تدور الدائرة.

لا أحد يعود إلى البداية.

لا أحد يسأل:

من أين جاءت الفكرة أصلاً؟

وهنا يتوقف القارئ.

لأن السؤال لم يعد:

من كان إسرائيل؟

بل:

ماذا فعلت الفكرة بعد إسرائيل؟

وهذا السؤال سيقودنا إلى المرحلة التالية.

فإذا كانت الفكرة قد انتقلت إلى الذرية...

فلا بد أن نبحث عن آثارها.

ليس في الرواية وحدها.

بل في القرآن نفسه.

في الأفعال التي ينسبها القرآن إلى بني إسرائيل.

في العهد الذي أخذه الله.

في نقض العهد.

في التعامل مع الآيات.

في قتل الأنبياء.

في الإفساد.

وفي العلو.

لكن قبل أن نحكم...

علينا أن نقرأ.

آية بعد آية.

دون أن نضع النتيجة مسبقاً.

لأن السؤال القادم أخطر من كل ما سبق:

هل كان ما حدث لبني إسرائيل مجرد تاريخ؟

أم أننا أمام نموذج قرآني...

يتكرر كلما تحولت الفكرة إلى ميراث؟

الفصل السابع

حين أصرحت الفكرة هوية

جلس الأسد تحت الشجرة، بينما كان الثعلب يدور حوله ذهاباً وإياباً، والفيل يراقبهما بصمت.

قال الأسد:

— المشكلة لم تعد في إسرائيل نفسه.

توقف الثعلب.

— ماذا تقصد؟

— أن الإنسان يموت، لكن الفكرة قد تبقى.

قال الثعلب:

— هذه قاعدة تنطبق على أي إنسان.

— نعم. ولذلك علينا أن نرى ماذا حدث لهذه الفكرة تحديداً.

رفع الفيل خرطوميه وقال:

— وما هي الفكرة؟

نظر الأسد إليه.

— هنا يبدأ الخلاف.

ابتسم الثعلب:

— بل هنا تبدأ القصة.

قال الأسد:

— أنا أرى خطأ يبدأ بإسرائيل، ثم ينتقل إلى ذريته، ثم إلى بني إسرائيل، ثم يتشكل عبر الزمن في صورة هوية وفكر وموروث.

ضحك الثعلب.

— خيط طويل جداً.

— لكنه ليس خيطاً اخترعته من عندي.

— القرآن يقول إن هذا الخيط موجود؟

سكت الأسد لحظة.

ثم قال:

— ليس بهذه الجملة.

ابتسم الثعلب:

— إذن انتهينا.

ضحك الفيل.

أما الأسد فقال:

— لا تتعجل.

القرآن لا يضع دائماً الصورة كاملة في آية واحدة. هو يطلب منا التدبر:

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾

نحن نجمع المواضع، نقارنها، ننظر إلى الأسماء والأفعال والنتائج، ثم نسأل: هل تتكون صورة؟

قال الثعلب:

— ولكن الصورة التي تراها أنت قد تكون مجرد ترتيب من صنعك.

— ولذلك أنت هنا.

— لماذا؟

— لكي تحاول إسقاطها.

رفع الفيل رأسه.

— وأنا؟

— لكي تسألني أين الدليل.

قال الفيل:

— مهمة ثقيلة.

ضحكوا.

قال الأسد:

— لنبدأ من نقطة واضحة.

إن القرآن يتحدث عن اليهود في سياقات متعددة، ويذكر مواقف وأفعالا وعلاقات تاريخية.

ثم قال:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا^١ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى^٢﴾

قال الثعلب فوراً:

— والآية تصف موقفاً، لا تمنحك تصريحاً لتعميم الحكم على كل يهودي.

— صحيح.

— إذن انتبه وأنت تبني.

— أنا منتبه.

قال الفيل:

— وهذه الآية نفسها تقول: «الذين قالوا إنا نصارى». أي إن الحديث عن جماعات ومواقف، وليس عن كل فرد بطريقة آلية.

أوماً الأسد.

— وهذا بالضبط سبب أهمية التدبر. لا نأخذ كلمة ونترك بقية القرآن.

قال الثعلب:

— لكن ما علاقة هذه الآية بإسرائيل؟

أجاب الأسد:

— لا أقول إنها تثبت السلسلة كلها.

— ماذا تثبت إذن؟

— أنها جزء من الصورة التي يجب ألا نتجاهلها.

ثم تابع:

— إذا كان القرآن يذكر إسرائيل، ثم بني إسرائيل، ثم يذكر تاريخهم ومواقفهم وعلاقتهم بالأنبياء والكتاب والعهد، ثم يذكر اليهود في سياقات أخرى، فالسؤال مشروع:

هل نحن أمام مجرد أسماء متفرقة؟

أم أمام امتداد تاريخي وفكري يمكن تتبعه؟

قال الثعلب:

— الآن بدأت أفهم طريقتك.

— وما هي؟

— أنت لا تقول: القرآن قال النتيجة.

بل تقول: القرآن وضع مواد، وأنت تختبر هل تنتج هذه المواد نتيجة معينة.

ابتسم الأسد.

— بالضبط.

قال الفيل:

— وماذا عن «النصيب المفروض»؟

عاد الأسد إلى جلسته.

— هنا تبدأ فرضيتي الخاصة.

قال الثعلب:

— أخيراً اعترفت.

— لم أنكر ذلك.

قال الأسد:

— أنا أرى النصيب هنا بصورة تتجاوز الحصة المادية. أراه أثرًا يفرض نفسه في الواقع: فكرة، نفوذًا، سلوكًا، مشروعًا، أو أثرًا ينتقل إلى الآخرين.

قال الفيل:

— وهذا تفسير منك.

— نعم.

قال الثعلب:

— إذن لا تسميه تعريفًا قرآنيًا.

— لن أفعل.

ساد صمت قصير.

ثم قال الأسد:

— تخيل أن إنساناً يختار فكرة.

ثم يموت.

لكن ابنه يرثها.

وحفيده يرثها.

ثم تتحول إلى قصة.

ثم إلى ذاكرة.

ثم يصبح الدفاع عنها دفاعاً عن هوية الجماعة.

قال الثعلب:

— وهذا يحدث كثيراً.

— بالطبع.

— فما الذي يجعل هذه الحالة مختلفة؟

نظر الأسد إلى الطريق أمامه.

— أنني أحاول أن أعرف إلى أين وصل هذا الأثر.

قال الفيل:

— إلى أين؟

— إلى السلطة.

رفع الثعلب حاجبه.

— قفزت مرة أخرى.

ضحك الأسد.

— حسناً. لنقفز أقل.

ثم قال:

— عندما تصبح الرواية جزءًا من هوية جماعة، يظهر سؤال بسيط:

من يحفظ الرواية؟

قال الفيل:

— أهلها.

— ومن يفسرها؟

— علماءها.

قال الثعلب:

— ومن يحدد ما يجب أن يصدقوه؟

سكت الجميع.

قال الأسد:

— هنا يبدأ السؤال عن السلطة.

قال الثعلب:

— وهل وصلت من هنا إلى الكبالا والتلمود؟

— وصلت إلى السؤال الذي يجعلني أبحث فيهما.

— وما السؤال؟

— كيف تطورت الروايات والتقاليد الدينية عبر الزمن؟ وكيف أصبحت بعض النصوص والتفسيرات جزءًا من بناء الهوية اليهودية؟

قال الفيل:

— هذا سؤال تاريخي يمكن بحثه.

— نعم.

— لكنه لا يثبت أن كل ما جاء لاحقًا بدأ مع إسرائيل.

— لم أقل إنه يثبت.

قال الأسد:

— أنا أبحث عن استمرارية محتملة، لا أعلن نتيجة نهائية.

قال الثعلب:

— وأين يدخل «تغيير خلق الله» والفساد؟

نظر الأسد إليه.

— عندما تتحول الفكرة إلى مشروع يريد إعادة تشكيل الإنسان والأرض والمجتمع وفق تصور محدد.

قال الفيل:

— لكن ليس كل تغيير فساداً.

— أعرف.

— وليس كل مشروع ديني تغييراً لخلق الله.

— أعرف.

قال الأسد:

— السؤال هو: متى يتحول تدخل الإنسان إلى إفساد؟ ومتى يصبح ما يفعله الإنسان تجاوزاً للحدود التي يضعها القرآن؟

قال الثعلب:

— هكذا يمكن أن نناقشه.

ثم قال الأسد:

— ولهذا لا أريد أن أبدأ من النهاية.

أريد أن أمشي خطوة خطوة.

إسرائيل.

ثم الأثر.

ثم الذرية.

ثم الجماعة.

ثم الرواية.

ثم الموروث.

ثم السلطة.

ثم التشريع.

قال الثعلب:

— وإذا لم تجد الحلقة التالية؟

— أتوقف.

— وإذا وجدت حلقة ضعيفة؟

— أضعفها.

— وإذا وجدت أنها لا تصمد؟

ابتسم الأسد.

— أسقطها.

ضحك الفيل.

— بدأت أحب هذه اللعبة.

قال الثعلب:

— لا تفرح كثيرًا. أنا لم أوافقك بعد.

— ولم أطلب منك أن توافقني.

أخذ الأسد نفسًا عميقًا.

ثم قال:

— هناك شيء آخر.

— ماذا؟

— القرآن لا يخبرنا دائمًا بالأشياء بالطريقة التي نريدها نحن. أحيانًا يضع أمامنا أجزاء الصورة ويترك لنا مهمة الربط والتدبر.

قال الثعلب:

— بشرط ألا نضع الربط ثم نسميه قرآنًا.

— متفقان.

قال الفيل:

— إذن لدينا ثلاث طبقات.

نظر إليه الأسد.

— قل.

— النص.

ثم أشار إلى الأسد.

— تدبرك للنص.

ثم أشار إلى الثعلب.

— واعتراضه على تدبرك.

ابتسم الثعلب.

— وأين أنا في المعادلة؟

قال الفيل:

— أنت الاعتراض.

ضحك الجميع.

حلّ المساء.

لكن الأسد لم ينته.

قال:

— إذا صحت فرضيتي، فالفكرة لم تتوقف عند إسرائيل.

لقد تحولت مع الزمن إلى هوية.

والهوية احتاجت إلى رواية.

والرواية احتاجت إلى من يحفظها ويفسرها.

ثم قد تتحول الرواية إلى سلطة.

وهنا يصبح السؤال أخطر:

من يملك حق الكلام باسم الله؟

ومن يقول:

هذا هو حكم الله؟

وهذا ليس من حكم الله؟

ومن أين جاءه هذا الحق؟

قال الثعلب:

— الآن فقط بدأت أفهم إلى أين تريد أن تأخذنا.

قال الأسد:

— إلى المرحلة التالية.

قال الفيل:

— العهد والكتاب؟

— نعم.

— والأخبار؟

— نعم.

— والتحريف؟

أجاب الأسد:

— إذا وجدنا دليله.

نظر الثعلب إليه.

— جيد.

ثم قال:

— لأنك هذه المرة لن تستطيع أن تحملنا إلى النهاية بخيط من عندك.

ابتسم الأسد.

— ولهذا سنعود إلى القرآن.

كان الطريق أمامهم مظلمًا.

لكن الأسئلة كانت أوضح من قبل.

لم يعد السؤال:

من هو إسرائيل فقط؟

بل:

ماذا بقي من الفكرة بعد إسرائيل؟

وكيف انتقلت؟

ومتى أصبحت هوية؟

ومتى أصبحت رواية؟

ومتى أصبحت سلطة؟

وهل كانت هذه المراحل موجودة في النص نفسه؟

أم أن الأسد يجمع نقاطاً متباعدة ليصنع منها طريقاً واحداً؟

نظر إليه الثعلب.

وقال:

— سنعرف.

رد الأسد:

— نعم.

ثم أضاف:

— لكن ليس من كلامي.

من القرآن.

ومما نستطيع أن نثبتته منه.

ومما لا نستطيع.

وسار الثلاثة.

وكان الفصل التالي ينتظرهم عند أول باب:

العهد والكتاب.

الفصل الثامن

حين أصبحت الرواية ديناً

لكانت النار قد هدأت.

لم يبقَ منها إلا جمر أحمر يتنفس تحت الرماد.

جلست الحيوانات حول الأسد في صمت.

كان كل واحد منها يحاول أن يرتب ما سمعه.

قطع الذئب الصمت:

— إذن أنت تقول إن الفكرة بقيت بعد إسرائيل؟

نظر إليه الأسد.

— أقول إن هذا احتمال تحاول قصتنا فهمه.

قال الذئب:

— لكنك تتحدث عنه كأنه حدث بالفعل.

ابتسم الأسد قليلاً.

— ربما لأنني أراه بهذه الطريقة.

قالت البومة:

— وهذه هي المشكلة.

التفت إليها الأسد.

— أي مشكلة؟

— أنك ترى مسارًا واحدًا، بينما ربما توجد مسارات أخرى.

رفع الأسد رأسه.

— هذا صحيح.

قال الثعلب:

— إذن دعنا لا نقرر من البداية.

هز الأسد رأسه.

— لنقرر.

قال الغراب:

— بل لننظر.

سكت الأسد لحظة، ثم قال:

— حسنًا.

إذا كانت الفكرة قد بقيت بعد إسرائيل، فماذا يمكن أن يحدث لها بعد ذلك؟

قالت القطة:

— ربما تموت مع صاحبها.

قال الذئب:

— أو تنتقل إلى أبنائه.

قالت البومة:

— أو تتغير حتى لا تعود هي الفكرة نفسها.

نظر الأسد إلى الجميع.

— وكل ذلك ممكن.

قال الثعلب:

— إذن لا نستطيع أن نقول إن ما جاء بعد إسرائيل كان استمرارًا للفكرة نفسها.

قال الأسد:

— لا نستطيع أن نجزم.

ثم نظر إلى الجمر.

— لكن يمكننا أن نبحث.

قال الغراب:

— وفي ماذا سنبحث؟

قال الأسد:

— في شيء يحدث كثيرًا بين البشر.

— ماذا؟

— أن تتحول الذاكرة إلى رواية.

قالت البومة:

— والرواية قد تكون صحيحة.

— وقد تكون ناقصة.

قال الثعلب:

— أو قد تكون قد تغيرت مع الزمن.

أجاب الأسد:

— نعم.

قال الذئب:

— فلماذا نسميها «رواية» وكأنها مشكلة؟

قال الأسد:

— ليست الرواية مشكلة.

ثم أضاف:

— المشكلة تبدأ عندما تتحول الرواية إلى شيء لا يستطيع أحد أن يسأل عنه.

ساد الصمت.

قال الغراب:

— وهل حدث ذلك؟

نظر الأسد إليه.

— لا أعرف.

ثم قال:

— لكن التاريخ يحمل لنا شيئاً يستحق النظر.

قال الذئب:

— التلمود؟

أوماً الأسد.

— التلمود.

اقتربت البومة من النار.

— لكن انتظر.

نظر إليها الأسد.

— ماذا؟

— لا تقل لنا إن التلمود هو نتيجة مباشرة لما حدث عند إسرائيل.

قال الأسد:

— لماذا؟

— لأنك لا تملك الدليل.

نظر إليها الأسد طويلاً.

ثم قال:

— صحيح.

قال الثعلب:

— بل أكثر من ذلك.

إذا قلنا:

إسرائيل أنشأ التلمود،

فنحن نكون قد قفزنا فوق قرون من التاريخ.

قال الأسد:

— أتفق معك.

ابتسم الغراب.

— يبدو أنك بدأت تتراجع.

ضحك الأسد.

— لا.

أنا فقط لا أريد أن أسبق القصة.

قال الذئب:

— إذن ماذا تريد أن تقول؟

قال الأسد:

— أريد أن أسأل فقط:

إذا تحولت جماعة بشرية عبر الزمن إلى هوية وذاكرة ورواية، فهل يمكن أن تظهر لاحقًا منظومة واسعة من النصوص والتفسيرات والقواعد؟

قالت البومة:

— هذا سؤال تاريخي.

— نعم.

— وليس جوابًا على سؤال إسرائيل.

— صحيح.

قال الثعلب:

— إذن التلمود ليس دليلًا على البداية.

— ولا على النهاية.

— بل هو شيء يمكن أن ننظر إليه ونرى ماذا يخبرنا.

قال الأسد:

— هذا ما أقصده.

ساد الصمت.

ثم قال الغراب:

— وما الذي نعرفه عن التلمود؟

قال الأسد:

— نعرف أنه ليس كتابًا واحدًا نزل على البشر دفعة واحدة.

قالت البومة:

— وهذه نقطة مهمة.

قال الأسد:

— إنه نتاج تقاليد ونقاشات وتفسيرات وأحكام تراكت عبر أزمئة طويلة.

قال الذئب:

— إذن ربما هو مثال على تحول الرواية إلى منظومة.

قالت البومة:

— ربما .

ثم أضافت:

— لكن «ربما» هي الكلمة المهمة هنا.

نظر إليها الأسد.

— نعم.

قال الثعلب:

— لأن وجود منظومة دينية لاحقة لا يثبت أنها جاءت من الفكرة التي نتحدث عنها.

— صحيح.

— وقد تكون لها أسباب تاريخية أخرى.

— صحيح.

— وقد تكون تطورت بصورة مختلفة تماماً.

— صحيح.

قال الغراب ضاحكاً:

— إذن لم يبقَ من كلام الأسد إلا الأسئلة!

ضحكت بعض الحيوانات.

أما الأسد فقال:

— أحياناً تكون الأسئلة أكثر أماناً من الأجوبة.

ثم سكت قليلاً.

— لكن هناك سؤالاً آخر.

قالت البومة:

— ما هو؟

— ماذا يحدث عندما لا تكتفي الجماعة بالنص المكتوب؟

قال الذئب:

— تقصد التفسير؟

— التفسير، والرواية، والتشريع، وما يتراكم حول النص مع الزمن.

قالت القطه:

— وهل كل ذلك سيي؟

نظر الأسد إليها.

— من قال ذلك؟

قالت:

— الطريقة التي تتحدث بها تجعلني أظن أنك ترى الرواية خطرًا.

هز الأسد رأسه.

— لا.

الرواية قد تحفظ الذاكرة.

وقد تنقل المعرفة.

وقد تشرح ما لا يفهمه الناس بسهولة.

لكنها قد تصبح أيضًا سلطة.

قال الثعلب:

— وهذه ليست مشكلة اليهود وحدهم.

نظر الأسد إليه.

— لم أقل إنها كذلك.

قال الثعلب:

— إذن يجب أن ننتبه.

فالبشر كلهم يفعلون هذا.

يبنون رواياتهم.

ثم ينسون أنها روايات.

نظر الأسد إلى الثعلب بإعجاب.

— ربما هذه أهم ملاحظة قلتها الليلة.

قالت البومة:

— وماذا عن الكبالا؟

نظر الأسد إليها.

— الكبالا؟

— نعم.

— لماذا تذكرينها الآن؟

— لأنتك تتحدث عن تراكم الرواية والتفسير، ثم هناك تقاليد يهودية باطنية ورمزية ظهرت في مراحل تاريخية لاحقة.

قال الأسد:

— نعم.

لكن علينا ألا نقفز مرة أخرى.

قال الذئب:

— ماذا تقصد؟

قال الأسد:

— لا نقول:

إسرائيل → التلمود → الكبالا.

قال الغراب:

— ولماذا؟

— لأن هذه العبارة تبدو سهلة جداً.

قال الثعلب:

— وسهولة العبارة لا تعني صحة التاريخ.

أوماً الأسد.

— بالضبط.

قالت البومة:

— إذن ماذا نقول؟

فكر الأسد.

— نقول إن أماننا مراحل تاريخية مختلفة.

توجد نصوص.

وتوجد روايات.

وتوجد تفسيرات.

وتوجد تشريعات.

وتوجد تيارات فكرية وروحية.

ثم نسأل:

هل بينها صلات تاريخية يمكن إثباتها؟

قال الذئب:

— وإذا لم نجد؟

— نقول لم نجد.

قال الغراب:

— وإذا وجدنا؟

— نقول وجدنا.

قالت القطّة:

— وإذا وجدنا شيئاً يشبه ما تبحث عنه، لكننا لم نجد دليلاً على العلاقة؟

ابتسم الأسد.

— نقول: وجدنا تشابهاً، ولم نجد دليلاً على العلاقة.

قال الثعلب:

— هذه إجابة لا يحبها القصاص.

ضحك الأسد.

— لكن ربما يحبها القارئ.

ثم عادت البومة إلى السؤال الأول:

— وماذا يقول القرآن عن هذا كله؟

نظر الأسد إلى النار.

— القرآن لا يذكر التلمود.

— ولا الكيالا.

— صحيح.

— إذن لا نستطيع أن نقول إن القرآن كان يتحدث عنهما.

— لا نستطيع.

قال الذئب:

— لكنه يتحدث عن الكتاب والميثاق والعهد، وعن الكتمان والتحريف، وعن الأحبار والربانيين، وعن القول على الله.

أجاب الأسد:

— نعم.

قالت البومة:

— فهل نستطيع أن نستخدم هذه المفاهيم لفهم ما حدث تاريخياً؟

فكر الأسد.

— نستطيع أن نقرأ التاريخ من خلالها.

لكن لا نستطيع أن نجعل التشابه دليلاً وحده.

قال الثعلب:

— إذن القرآن يسألنا، والتاريخ يعرض لنا ما حدث، ونحن نقارن.

— ربما.

قال الذئب:

— ولماذا «ربما» مرة أخرى؟

ابتسم الأسد.

— لأنني واحد منكم.

ولست فوق القصة.

ساد الصمت.

كانت تلك الجملة مختلفة.

فالأسد الذي بدا في الليالي الماضية وكأنه يعرف الطريق كله، بدا الآن وكأنه يسير معهم.

قال الغراب:

— إذن ماذا عن الفكرة الأولى؟

نظر إليه الأسد.

— أي فكرة؟

— إسرائيلي.

سكت الأسد.

قال الذئب:

— هل ما نراه الآن امتداد لها؟

وقالت البومة:

— أم أن التاريخ أخذ طريقًا آخر؟

وأضاف الثعلب:

— أم أننا نحن الذين نحاول أن نربط أحداثًا متباعدة لأننا نعرف نهايتها؟

نظر الأسد إلى الجميع.

ثم قال:

— لا أعرف.

رفع الغراب حاجبه.

— أخيرًا قتلها.

ضحك الأسد.

— وهل تظنون أنني أخاف من كلمة «لا أعرف»؟

ثم اقترب من الجمر.

— ربما يكون بين الأحداث خيط.

وربما تكون الخيوط التي نراها من صنع أعيننا.

قالت القطعة:

— إذن لا يزال الباب مفتوحًا.

— نعم.

قال الذئب:

— وما الذي يوجد خلفه؟

رفع الأسد عينيه إلى الظلام.

— التلمود.

سكت الجميع.

ثم قالت البومة:

— ويَعْدُه؟

قال الأسد:

— الكيالا.

قال الغراب:

— وهل سندخل ونحن نبحث عن إثبات قصتنا؟

نظر الأسد إليه.

— لا.

قال:

— سندخل ونحن لا نعرف ماذا سنجد.

قال الثعلب:

— وربما نجد ما يؤيدها.

قالت البومة:

— وربما نجد ما يعارضها.

قال الذئب:

— وربما نجد شيئاً لا علاقة له بها أصلاً.

ابتسم الأسد.

— وكلها نتائج تستحق أن نعرفها.

ثم نظر إلى الحيوانات واحداً واحداً.

— لأننا إذا دخلنا ونحن نبحث فقط عما يؤيدنا، فلن نقرأ ما أمامنا.

قال الغراب:

— وماذا نسمي ذلك؟

أجاب الأسد:

— خداع أنفسنا.

خمدت آخر جمرة.

وبقيت الحيوانات تنتظر إلى الظلام.

كان هناك كتاب ينتظر أن يُفتح.

لكن أحداً لم يكن يعرف بعد...

هل سيكشف لهم ما يبحثون عنه؟

أم سيكشف لهم أنهم كانوا يبحثون في المكان الخطأ؟

الفصل التاسع

عندما تحولت الفكرة إلى قوة

قال الأسد:

— هل تستطيع قصتنا أن تصمد أمامهما؟

كان السؤال الذي أنهى الليلة السابقة لا يزال معلقاً في الهواء.

التلمود.

والكبالا.

لم نذكرهما لنثبت بهما شيئاً.

بل لأننا وصلنا في الفرضية إلى مرحلة جديدة:

لم تعد الفكرة مجرد ذكرى.

لقد أصبحت رواية.

والرواية أصبحت تفسيراً.

والتفسير يمكن أن يتحول إلى تشريع.

ثم إلى منظومة.

ثم إلى سلطة.

لكن ماذا يحدث عندما تصبح السلطة قادرة على التأثير في حياة البشر؟

هنا...

تبدأ المرحلة الأكثر ظلمة.

قال الذئب:

— تقصد أن الفكرة أصبحت قوة؟

أجاب الأسد:

— هذا ما نريد أن نختبره.

— وكيف؟

— بالنظر إلى آثارها.

فالسلطة لا تُعرف فقط بما تقوله.

بل بما تفعله.

قالت البومة:

— ولكننا لا نستطيع أن نقول إن التلمود أو الكبّالا هما سبب كل ما حدث بعدهما.

— صحيح.

قال الأسد.

— ولا نستطيع أن نقول إن كل من اتبع هذه التقاليد كان شريكاً في الجرائم التي ارتكبت عبر التاريخ.

ثم رفع عينيه إليهم:

— نحن نبحث عن ممارسات محددة، في أزمنة محددة، قام بها أشخاص وجماعات محددة.

ثم نسال:

هل يمكن أن نرى في بعضها أثراً لذلك المسار الذي بدأناه؟

اقترب الغراب.

— وما المسار؟

قال الأسد:

— لنراجع.

ثم بدأ يعد على أصابعه:

— اختيار.

— ثم فكرة.

— ثم انتقال.

— ثم هوية.

— ثم رواية.

— ثم تفسير.

— ثم سلطة.

وتوقف.

— والآن:

ماذا تفعل السلطة عندما تريد أن تبقى؟

قال الثعلب:

— تستخدم القوة.

— أحياناً.

— وتستخدم المال؟

— أحياناً.

— والجيش؟

— أحياناً.

ابتسم الأسد.

— لكن هناك أدوات أقدم من ذلك.

وأكثر دواماً.

قالت البومة:

— ما هي؟

أجاب:

— الخوف.

سكت الجميع.

ثم قال:

— وبعد الخوف يأتي شيء أخطر:

احتكار الحقيقة.

قال الذئب:

— كيف؟

قال الأسد:

— عندما تقول جماعة:

نحن نعرف.

ونحن وحدنا نعرف.

ومن يخالفنا لا يخطئ فقط...

بل يخالف الحقيقة نفسها.

وإذا أصبحت الحقيقة مرتبطة بالمقدس...

فإن مخالفتها يمكن أن تُصوّر باعتبارها عصيَاناً لله.

وهنا يصبح الاعتراض خطراً.

قال الغراب:

— لكن أين الدليل على أن هذا حدث؟

نظر إليه الأسد.

— هذا هو السؤال الصحيح.

لا يكفي أن نرى التشابه.

ولا يكفي أن نجد نصاً دينياً.

ولا يكفي أن نجد حادثة عنف.

نحن بحاجة إلى أن نحدد:

من فعل؟

متى؟

لماذا؟

وبأي مبرر؟

ثم نسأل:

هل كان المبرر دينياً؟

وهل استُخدم النص أو التفسير أو الهوية لتبرير الفعل؟

قال الحصان:

— وإذا وجدنا ذلك؟

— عندها يصبح لدينا دليل على ممارسة محددة.

— وليس دليلاً على أن كل اليهود فعلوا ذلك؟

— بالتأكيد لا.

رفع الغراب صوته:

— ولكنك قلت إننا نبحث عن أبشع الأساليب.

قال الأسد:

— نعم.

لكن أبشعها ليس بالضرورة القتل.

فالقتل ينهي حياة إنسان.

أما السيطرة على عقله...

فقد تجعله يعيش عمره كله وهو يظن أنه اختار ما فرض عليه.

ساد الصمت.

ثم قال الأسد:

— تخيلوا إنساناً يولد داخل منظومة تقول له منذ طفولته:

هذه حقيقتك.

هذا عدوك.

هذا صديقك.

هذا مسموح.

هذا ممنوع.

هؤلاء منا.

وهؤلاء منهم.

وهذا لا يجوز أن تسأل عنه.

ثم يكبر.

فيجد أن المجتمع كله يقول الشيء نفسه.

هل يستطيع بسهولة أن يعرف أين ينتهي اختياره...

وأين يبدأ ما فُرض عليه؟

قالت البومة:

— وهذا هو «النصيب المفروض».

— أحد أوجهه.

قال الأسد.

— أن يتحول الشيء الذي كان اختياراً في البداية إلى شيء يبدو كأنه قدر لا يمكن تغييره.

قال الذئب:

— لكن هذا يمكن أن يحدث لأي جماعة.

أجاب الأسد:

— بالضبط.

ولهذا لا نبحث عن «شر يهودي».

نحن نبحث عن آلية بشرية.

لكن إذا وجدنا أن هذه الآلية ظهرت في مراحل من التاريخ اليهودي، فعلينا أن نقول ذلك بوضوح.

وإذا ظهرت في غيرهم، فعلينا أن نقول ذلك أيضاً.

قال الثعلب:

— إذن أين يدخل الإجرام؟

قال الأسد:

— عندما تتحول الهوية إلى مبرر.

عندما يتحول الخوف إلى أداة.

عندما يصبح المختلف عدوً لمجرد اختلافه.

عندما تستخدم السلطة المقدس لتبرير القتل أو الإقصاء أو السيطرة.

وعندما تصبح الرواية أقوى من الإنسان.

قال الغراب:

— هل نستطيع أن نربط هذا بإسرائيل؟

نظر الأسد إليه طويلاً.

— لا نستطيع أن نقفز مئات السنين ونقول:

هذا فعله إسرائيل.

هذه ليست دراسة.

هذه قصة اخترعنا نتيجتها مسبقاً.

لكن نستطيع أن نقول:

لدينا فرضية عن بداية.

ولدينا مراحل تاريخية لاحقة.

والآن نبحث:

هل توجد صلات يمكن إثباتها بين هذه المراحل؟

قالت البومة:

— وماذا لو لم نجد؟

أجاب الأسد:

— نسقط الصلة.

— وماذا لو وجدنا؟

— نثبتها بقدر ما تسمح به الأدلة.

— حتى لو أضعفت قصتنا؟

ابتسم الأسد.

— خصوصاً إذا أضعفتها.

ثم فتح الأسد الكتاب من جديد.

قال:

— لكن هناك شيئاً في القرآن يجعل السؤال أكثر خطورة.

اقترب الجميع.

— ماذا؟

قال:

الأحبار.

ثم:

الربانيون.

ثم:

اتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله.

نظر الغراب إليه.

— أنت قصد الآية؟

أجاب الأسد:

— نعم.

لكن لا أريد أن نستعملها كحكم جاهز على التلمود.

بل كسؤال.

ماذا يحدث عندما يصبح البشر قادرين على تحديد ما هو ديني نيابة عن الله؟

وهل يمكن أن يصل الإنسان إلى مرحلة يطيع فيها سلطة بشرية طاعة تجعلها في مقام لا ينبغي أن يكون إلا لله؟

قال الذئب:

— وإذا حدث ذلك؟

قال الأسد:

— عندها نكون أمام أخطر أشكال السيطرة.

لأنك لا تحتاج إلى إجبار الإنسان.

يكفي أن تجعله يعتقد أن طاعتك...

طاعة لله.

كانت النار قد بدأت تنطفئ.

لكن الأسد لم يتوقف.

قال:

— والآن بدأنا نفهم لماذا كان علينا أن نمر من إسرائيل...

ثم الذرية...

ثم الرواية...

ثم التلمود والكبالات...

قبل أن نصل إلى هنا.

لم نكن نبحت عن أسماء.

كنا نبحت عن تحول.

كيف يمكن لفكرة أن تنتقل من إنسان...

إلى جماعة...

ومن جماعة...

إلى رواية...

ومن الرواية...

إلى سلطة...

ومن السلطة...

إلى قدرة على التحكم في البشر.

قال الحصان:

— وما الخطوة التالية؟

أغلق الأسد الكتاب.

وقال:

— الآن نعود إلى القرآن مرة أخرى.

لكن هذه المرة لن نبحت عن إسرائيل.

سنبحث عن الآلية نفسها.

إبليس.

الشيطان.

الجبت.

الطاغوت.

السامري.

والأخطر من كل ذلك:

الإنسان الذي يسلم عقله لغيره ثم يظن أنه اختار.

رفع الغراب رأسه.

— ومن أين نبداً؟

نظر الأسد إلى آخر جمرة.

وقال:

— من السامري.

ثم سكت.

لأن السؤال القادم لم يعد:

من يملك الحقيقة؟

بال:

كيف يصنع الإنسان صنماً... ثم يقنع الآخرين بأنه الحقيقة؟

الفصل العاشر

صانع الصنم

— من يصنع الصنم؟

ظل السؤال معلقاً في الظلام.

لم يجب أحد.

كان الأسد قد أغلق الكتاب، لكن أحداً لم يغلق السؤال.

قال الغراب:

— الذي يصنعه بيديه.

قالت البومة:

— وربما الذي يطلب من الآخرين أن يعبدوه.

قال الذئب:

— وربما الذي يقنعهم بأنه ليس صنماً أصلاً.

رفع الأسد رأسه.

— الآن اقتربنا.

قال الحصان:

— ماذا تقصد؟

أجاب الأسد:

— الصنم لا يبدأ حجراً.

— كيف؟

— يبدأ فكرة.

ثم يصبح رمزاً.

ثم يصبح مقدساً.

ثم يصبح شيئاً لا يجوز الاقتراب منه بالسؤال.

وعندما يصل إلى هذه المرحلة...

قد لا يحتاج إلى أن يكون مصنوعاً من حجر.

قال الثعلب:

— وهل هذا ما فعله السامري؟

نظر الأسد إليه.

— القرآن يخبرنا أن السامري أخرج لهم عجلاً جسداً له خوار.

ثم قال:

— لكن الأهم من العجل نفسه...

هو ما حدث في عقول الذين رأوه.

قال الغراب:

— قال لهم: هذا إلهكم وإله موسى.

أوماً الأسد.

— نعم.

— لكنه لم يقل لهم فقط: انظروا إلى عجل.

قال الأسد:

— بالضبط.

لقد أعاد تعريف الشيء أمامهم.

لم يعد عجلاً.

أصبح إلهاً.

سكتت الحيوانات.

ثم قالت البومة:

— إذن السيطرة تبدأ بتغيير اسم الشيء؟

— أحياناً.

قال الأسد:

— لأن الإنسان لا يرى الأشياء بعينه فقط.

يرى الأشياء من خلال المعنى الذي يُعطى لها.

إذا قلت له:

هذا حجر...

رآه حجرًا.

وإذا قلت:

هذا مقدس...

تغيرت علاقته به.

وإذا قلت:

هذا إله...

فقد يتحول الشيء في ذهنه من مادة إلى سلطة.

قال الذئب:

— لكنهم كانوا يعرفون موسى.

— نعم.

— وكانوا يعرفون أن العجل ليس موسى.

— ومع ذلك تبعوه.

قال الأسد:

— وهذه هي النقطة التي يجب أن نفهمها.

الإنسان لا يتبع الصنم دائماً لأنه يجهل أنه صنم.

أحياناً يتبعه لأنه يريد معنى يراه أمامه.

شيئاً محسوساً.

شيئاً يمكنه أن يلمسه.

شيئاً يطمئنه.

قال الغراب:

— وهل هذا هو «النصيب المفروض»؟

قال الأسد:

— ليس بعد.

لكنه يكشف لنا آلية مهمة.

النصيب المفروض يحتاج إلى شيء يحل محل الاختيار.

والصنم يستطيع أن يفعل ذلك.

بدل أن يسأل الإنسان:

ماذا أختار؟

يقال له:

هذا هو الطريق.

بدل أن يبحث:

يُطلب منه أن يتبع.

بدل أن يتدبر:

يُطلب منه أن يطيع.

قالت البومة:

— لكن السامري حالة واحدة.

— نعم.

— فكيف تصبح فرضية عامة؟

ابتسم الأسد.

— لا نجعلها عامة.

نختبرها.

ثم اقترب من النار.

وقال:

— القرآن يعطينا حالة واضحة.

رجل.

جماعة.

لحظة غياب.

فراغ.

ثم رمز.

ثم دعوة.

ثم اتباع.

ثم انقسام.

ثم صراع على الحقيقة.

هذه ليست نظرية.

هذه قصة قرآنية.

أما السؤال الذي يهمنا فهو:

هل تكشف لنا القصة آلية تتكرر في صور أخرى؟

قال الحصان:

— وما الآلية؟

قال الأسد:

— عندما يغيب المصدر...

يظهر من يتكلم باسمه.

وعندما يصعب الوصول إلى الحقيقة...

يظهر من يقدم نفسه باعتباره حاملها.

وعندما يخاف الناس من الفراغ...

يصبحون أكثر استعداداً لاتباع البديل.

قال الذئب:

— إذن المشكلة ليست في الصنم نفسه.

— غالباً لا.

قال الأسد.

— المشكلة في الحاجة التي جعلت الصنم ممكناً.

رفع الغراب صوته:

— ولكن السامري لم يكن وحده.

نظر الأسد إليه.

— صحيح.

وهذه نقطة لا ينبغي أن نهملها.

هناك من صنع.

وهناك من اتبع.

وهناك من رفض.

وهناك من حاول أن يمنع.

وهنا تظهر قاعدة مهمة:

وجود صاحب الفكرة لا يعني نجاحها.

النجاح يحتاج إلى جمهور.

قال الثعلب:

— إذن السيطرة ليست من طرف واحد.

— أبدأ.

قال الأسد.

— إنها علاقة.

من يفرض...

ومن يقبل.

ومن يخاف.

ومن يصمت.

ومن يستفيد.

ومن يقاوم.

ولهذا لا يمكن أن نفهم الطغيان من خلال الطاغية وحده.

قالت البومة:

— وهل لهذا علاقة بما قلته عن التلمود والكبالات؟

ساد صمت قصير.

ثم قال الأسد:

— نعم، ولكن علينا أن نحافظ على المسافة.

التلمود والكبالات ليسا عجل السامري.

ولا يجوز أن نقول ذلك.

لكن الفرضية التي نختبرها تسأل عن شيء أوسع:

هل يمكن أن تتحول الوسيلة التي تشرح المقدس إلى سلطة على الإنسان؟

فإذا أصبح التفسير هو الطريق الوحيد لفهم النص...

أصبح صاحب التفسير أكثر أهمية.

وإذا أصبح المعنى الباطني لا يعرفه إلا الخاصة...

أصبح صاحب المعرفة الخاصة أكثر قوة.

وهنا تعود الأسئلة التي تركناها في الفصل السابق.

قال الذئب:

— إذن الصنم قد يكون شخصاً؟

— نعم.

— أو كتاباً؟

— يمكن أن يصبح الكتاب صنماً إذا عُبِد بدل أن يُقرأ.

— أو رواية؟

— نعم.

— أو مؤسسة؟

— نعم.

— أو فكرة؟

ابتسم الأسد.

— وهنا نصل إلى أخطرها.

اقترب الجميع.

قال الأسد:

— لأن الحجر يمكن كسره.

والتمثال يمكن إسقاطه.

والقصر يمكن هدمه.

لكن الفكرة التي أصبحت مقدسة...

لا تحتاج إلى جدران.

قد يسكنها الإنسان في رأسه.

ويحملها معه أينما ذهب.

قال الغراب:

— وهل هذا هو أخطر ما في النصيب المفروض؟

قال الأسد:

— ربما.

لأن النصيب المفروض لا يقول للإنسان:

«أنا أمنعك.»

بل يقول:

«أنت اخترت.»

مع أنه يكون قد صنع له الخيارات مسبقاً.

ساد الصمت.

ثم قالت البومة:

— أعطني مثلاً.

قال الأسد:

— سأعطيك سؤالاً.

إذا قيل لطفل منذ ولادته:

هذه جماعتك.

وهذا عدوك.

وهذه حقيقتك.

وهذا كتابك.

وهذا تفسير كتابك.

وهذه حدود الأسئلة التي تستطيع أن تسألها...

فإذا كبر واختار الشيء نفسه...

هل كان اختياره حرًا بالكامل؟

قال الذئب:

— لا أعرف.

قال الأسد:

— وهذا هو السؤال.

نحن لا نحتاج إلى أن نجيب عنه بسرعة.

علينا أن نتركه يعمل في عقولنا.

قال الحصان:

— لكن القرآن نفسه يدعو إلى الاختيار.

قال الأسد:

— نعم.

ولهذا يصبح الصراع أكثر وضوحًا.

فالقرآن يخاطب الإنسان باعتباره قادرًا على النظر والتعقل والتدبر.

بينما تقوم السيطرة على إغلاق هذه الأبواب.

قال الغراب:

— إذن الصنم الحقيقي قد يكون إلغاء السؤال.

رفع الأسد عينيه.

— الآن قلت شيئًا مهمًا.

ثم قال:

أخطر صنم ليس ما تسجد له.

أخطر صنم هو ما يمنعك من أن تسأل.

لم يتكلم أحد.

تابع الأسد:

— لأن الإنسان الذي يستطيع السؤال...

يمكنه أن يراجع.

والذي يستطيع المراجعة...

يمكنه أن يرفض.

والذي يستطيع الرفض...

يصعب التحكم فيه.

ولهذا تبدأ السيطرة الحقيقية عندما يصبح السؤال نفسه جريمة.

قالت البومة:

— وهل وجدنا هذا في قصة السامري؟

قال الأسد:

— وجدنا نموذجًا.

أما التعميم...

فعلينا أن نختبره في مواضع أخرى.

ولهذا لن نتوقف عند السامري.

ثم رفع الأسد الكتاب.

— هناك ثلاثة أسماء يجب أن نفهمها.

الجيت.

الطاغوت.

الشیطان.

قال الذئب:

— أليست كلها شيئاً واحداً؟

أجاب الأسد:

— لا.

وهذا هو الخطأ الذي يمكن أن يضيع علينا القصة كلها.

إذا كانت مختلفة في القرآن...

فلماذا؟

هل كل واحد منها يمثل نوعاً مختلفاً من السيطرة؟

هل الجبت يتعلق بالباطل الذي يُتبع؟

هل الطاغوت يتعلق بتجاوز الحد وفرض السلطة؟

وهل الشيطان هو الإغواء الذي يجعل الإنسان يقبل ذلك؟

قال الغراب:

— وإذا كانت كذلك؟

قال الأسد:

— عندها قد نكون أمام منظومة كاملة.

إغواء.

ثم خوف.

ثم رمز.

ثم سلطة.

ثم طاعة.

ثم قيد.

نظر الأسد إلى آخر جمرتين.

وقال:

— لكن قبل أن نقرر...

علينا أن نقرأ.

لا أن نُسقط فكرتنا على الآيات.

لأننا وصلنا الآن إلى أخطر نقطة في الرحلة.

لم نعد نبحت فقط:

من بدأ الفكرة؟

بل:

كيف تعمل الفكرة عندما تتحول إلى سلطة؟

رفع الغراب رأسه.

— وماذا بعد؟

أجاب الأسد:

— بعد ذلك...

سنواجه الطاغوت.

ولن يكون السؤال:

من هو؟

بل:

كيف يعرف الإنسان أنه أطاع طاغوتاً... وهو يظن أنه أطاع الحق؟

انطفأت آخر جمرة.

لكن أحداً لم يتحرك.

لأن الجميع فهم أن السؤال القادم...

قد يكون أخطر من الصنم نفسه.

الفصل الحادي عشر

الطاغوت

كانت آخر كلمات الأسد لا تزال عالقة في المكان:

كيف يعرف الإنسان أنه أطاع طاغوتاً... وهو يظن أنه أطاع الحق؟

لم يجب أحد.

كان الليل هادئاً.

لكن السؤال لم يكن هادئاً.

قال الغراب:

— ربما يكون الأمر بسيطاً.

نظر إليه الأسد.

— كيف؟

— إذا كان الطاغوت يأمر بالباطل، فالإنسان يعرف أنه باطل.

قال الذئب:

— وهل كل باطل يبدو باطلاً؟

سكت الغراب.

قالت البومة:

— ربما تكون المشكلة هنا.

ليس في أن الإنسان يريد أن يطيع الباطل...

بل في أن الباطل قد يأتيه بصورة الحق.

رفع الأسد رأسه.

— الآن بدأنا نقترّب.

قال الحصان:

— لكن ما هو الطاغوت؟

أجاب الأسد:

— لا نستطيع أن نجيب قبل أن نقرأ.

ثم فتح الكتاب.

— القرآن لا يضع أمامنا كلمة بلا سياق.

علينا أن نجمع المواضع.

أن ننظر:

من يُتبع؟

ومن يُطاع؟

ومن يُرفض؟

وماذا يحدث للإنسان عندما يختار طريقاً دون طريق؟

قال الغراب:

— إذن نبدأ بالآية التي ذكرت الطاغوت.

قرأ الأسد:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾

ثم أغلق الكتاب.

قال:

— توقفوا هنا.

قال الذئب:

— لماذا؟

— لأن الآية أعطتنا شيئاً مهماً جداً.

— ماذا؟

— الإنسان قد يزعم الإيمان...

ثم يختار مرجعية أخرى عندما يأتي وقت النزاع.

قالت البومة:

— إذن المشكلة ليست في الكلام الذي يقوله الإنسان عن إيمانه.

— بل في ما يرجع إليه عندما يختلف.

قال الأسد:

— هذه نقطة تستحق أن نتوقف عندها.

يمكن للإنسان أن يقول:

أنا أؤمن بالله.

ثم عندما يواجه الاختيار...

يبحث عن سلطة أخرى.

عن شخص.

عن جماعة.

عن خوف.

عن مصلحة.

عن رواية.

عن شيء يمنحه الجواب دون أن يضطر إلى البحث.

قال الثعلب:

— لكن ربما يكون هذا الشيء صحيحًا.

— ربما.

قال الأسد.

— ولهذا لا نحكم عليه بمجرد اسمه.

نبحث عن وظيفته.

قال الغراب:

— وظيفته؟

— نعم.

إذا كان الشيء يمنع الإنسان من النظر...

إذا كان يمنعه من السؤال...

إذا جعله يطيع دون برهان...

إذا جعله يقدم كلام البشر على الحق...

فهنا يجب أن نسأل:

هل أصبح هذا الشيء طاغوتًا؟

قال الذئب:

— إذن الطاغوت ليس بالضرورة شخصًا.

قال الأسد:

— لم أقل ذلك.

— لكنه قد يكون شخصًا؟

— قد يكون.

— وسلطة؟

— قد تكون.

— جماعة؟

— قد تكون.

— فكرة؟

توقف الأسد قليلاً.

— إذا أردنا أن نقول ذلك، فعلينا أن نثبت كيف تعمل الفكرة كسلطة.

لا يكفي أن نسميها طاغوتًا.

قالت البومة:

— كأننا عدنا إلى النصيب المفروض.

ابتسم الأسد.

— نعم.

لكن هذه المرة من زاوية مختلفة.

النصيب المفروض يقول للإنسان:

هذا هو ما يجب أن تؤمن به.

والطاغوت قد يقول له:

وهذا هو من يجب أن تطيعه.

والشيطان لا يحتاج إلى أن يجبره.

يكفي أن يزين له الطريق.

قال الحصان:

— إذن هناك فرق بينهم؟

— هذا ما نختبره.

قال الأسد.

ثم أضاف:

— لا نريد أن نجعل كل الكلمات شيئاً واحداً.

فالقُرآن ذكر:

الشيطان.

ونذكر:

الطاغوت.

ونذكر:

الجبت.

إذا كانت الكلمات مختلفة...

فعلينا أن نبحث عن اختلاف وظائفها.

رفع الغراب جناحه.

— لكن كيف يمكن للطاغوت أن يسيطر على الإنسان؟

قال الأسد:

— يبدأ الأمر أحياناً من شيء بسيط.

أن يتوقف الإنسان عن السؤال: لماذا؟

قال الغراب:

— ولماذا هذا خطير؟

— لأن السؤال يفتح احتمالاً.

والاحتمال يفتح المقارنة.

والمقارنة تفتح الاختيار.

والاختيار يجعل الإنسان مسؤولاً عن قراره.

أما إذا أغلقت السؤال...

فأنت لا تعطيه جواباً فقط.

أنت تسلبه الطريق الذي يصل به إلى الجواب.

قال الذئب:

— ومن يغلق السؤال؟

قال الأسد:

— أحياناً الخوف.

وأحياناً السلطة.

وأحياناً الجماعة.

وأحياناً الإنسان نفسه.

قال الثعلب:

— الإنسان نفسه؟

— نعم.

يمكن أن يخاف الإنسان من الحقيقة لأنها قد تجبره على تغيير حياته.

لذلك قد يفضل جواباً جاهزاً على سؤال مفتوح.

قالت البومة:

— وهذا يجعل السيطرة سهلة.

— جداً.

قال الأسد.

— لا تحتاج إلى أن تمنع الإنسان من التفكير بالقوة.

يكفي أن تجعله يعتقد أن التفكير خطر.

قال الحصان:

— وكيف؟

قال الأسد:

— قل له:

لا تسأل.

لا تناقش.

لا تبحث.

لا تقرأ.

لا تقارن.

هناك من يعرف عنك.

وهناك من يفكر بدلاً منك.

وهناك من يملك الحقيقة.

وأنت عليك فقط أن تتبع.

قال الغراب:

— لكن الإنسان قد يشعر بالراحة.

— وهذا هو الخطر.

قال الأسد.

— فالطاغوت لا يأتي دائماً بصورة العدو.

قد يأتي بصورة الحماية.

يقول للإنسان:

أنا أعرف أكثر منك.

أنا أحميك.

أنا أعرف مصلحتك.

أنا أعرف الطريق.

وأنت لا تحتاج إلا إلى الطاعة.

قال الذئب:

— وهذا يشبه ما قلناه عن الصنم.

— نعم.

لكن هناك فرق.

الصنم يمكن أن يكون رمزاً.

أما الطاغوت، في فرضيتنا الحالية، فنحن نبحث فيه عن سلطة تتجاوز الحد وتطلب من الإنسان أن يجعلها مرجعاً فوق الحق.

وهذا مجرد اختبار.

لا يزال علينا أن نضعه أمام القرآن.

سكتت الحيوانات.

ثم قال الغراب:

— وهل الطاغوت يحتاج إلى سيف؟

قال الأسد:

— ليس دائماً.

— ماذا يحتاج؟

— يحتاج إلى قبول.

— قبول من؟

— من الإنسان.

قالت البومة:

— إذن أخطر لحظة ليست عندما يقول الطاغوت: أطعني.

بل عندما يقول الإنسان:

أنا أطيع لأنني اخترت.

نظر الأسد إليها طويلاً.

— نعم.

وهنا نعود إلى النصيب المفروض.

قال الحصان:

— كيف؟

قال الأسد:

— لأن السيطرة الكاملة لا تريد أن تشعر أنك مُجبر.

تريدك أن تشعر أنك اخترت.

أن ترى القيد...

ولا تسميه قيدًا.

أن ترى السلطة...

وتسميها حقًا.

أن ترى الخوف...

وتسميه إيمانًا.

أن ترى التبعية...

وتسميها وفاءً.

قال الذئب:

— وهل هذا هو الإضلال؟

رفع الأسد عينيه.

— ربما يكون أحد صوره.

لكن لا تتعجل.

فالقرآن يقول:

﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾

فالشيطان لا يحتاج دائمًا إلى تغيير الشيء.

يكفي أن يغير نظرة الإنسان إليه.

قال الغراب:

— إذن الصنم والطاغوت والشيطان متصلون؟

قال الأسد:

— قد تتقاطع وظائفهم.

لكن لا ينبغي أن نذيب الفروق بينهم.

قد يكون الشيطان هو الإغواء.

وقد يكون الطاغوت هو السلطة التي تُطاع.

وقد يكون الجبت شيئاً آخر.

لكن هذه مجرد فرضيات.

قالت البومة:

— وإذا اجتمعت؟

نظر الأسد إلى النار.

— عندها يصبح الأمر أخطر.

الإغواء يزين.

والسلطة تفرض.

والخوف يحمي النظام.

والجماعة تراقب.

والإنسان يراقب نفسه.

ثم يعتقد أنه اختار كل ذلك بحرية.

قال الثعلب:

— ومن المستفيد؟

قال الأسد:

— هذا سؤال جيد.

لكن لا نفترض الإجابة.

قد يكون شخصاً.

وقد تكون جماعة.

وقد تكون مؤسسة.

وقد لا يكون هناك مستفيد واحد أصلاً.

أحياناً تستمر المنظومة لأنها أصبحت أكبر من الذين بدأوها.

قال الغراب:

— مثل النار التي بدأت من شرارة؟

— نعم.

قال الأسد.

— صاحب الشرارة قد يموت.

لكن النار تنتقل.

وهذا يعيدنا إلى السؤال الذي بدأنا منه:

كيف تنتقل الفكرة من إنسان إلى إنسان؟

رفع الأسد الكتاب مرة أخرى.

وقال:

— القرآن لا يعرض الإنسان ككائن بلا إرادة.

بل يخاطبه.

يحذره.

يدعوه إلى النظر.

إلى التعقل.

إلى التدبر.

ثم يحمله مسؤولية اختياره.

ولهذا...

إذا كان هناك من يريد السيطرة عليه...

فلن أول ما يجب أن يفعله هو إغلاق هذه الأبواب.

قال الحصان:

— أبواب ماذا؟

قال الأسد:

النظر.

والتعقل.

والتدبر.

والاختيار.

قال الذئب:

— وهل يستطيع الطاغوت إغلاقها كلها؟

أجاب الأسد:

— يستطيع المحاولة.

ثم ابتسم.

— لكن هنا تبدأ المشكلة بالنسبة إليه.

قال الغراب:

— ما المشكلة؟

رفع الأسد عينيه إلى السماء.

— أن الله لم يترك الإنسان وحده.

سكت الجميع.

ثم قال:

— مهما امتد المكر...

هناك شيء لا يستطيع الماكر أن يملكه بالكامل.

قالت البومة:

— ما هو؟

— نور الله.

قال الغراب:

— وهل يعني هذا أن الطاغوت لا ينتصر؟

قال الأسد:

— لا أعرف ماذا سيحدث لكل إنسان.

ولا أستطيع أن أقول إن كل معركة في الأرض تنتهي بالطريقة التي نريدها.

لكن القرآن يقول:

﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾

ثم سكت.

وقال:

— إذن يمكنهم أن يحاولوا.

لكنهم لا يملكون النور.

قال الذئب:

— وماذا عن المكر؟

أجاب الأسد:

— القرآن يقول:

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾

ثم أغلق الكتاب.

— وهذه ليست دعوة لنا إلى المكر.

بل تذكير بأن الإنسان لا يرى الصورة كلها.

قد يظن الماكر أنه أحكم الخطة.

بينما تكون النتيجة خارج ما حسب.

قالت البومة:

— إذن ما زلنا لا نعرف النهاية.

— لا.

قال الأسد.

— ونحن لا ينبغي أن ندعي معرفتها.

قال الغراب:

— وماذا حدث للإنسان؟

نظر الأسد إليه.

ثم طال صمته.

— هذا سؤال سنصل إليه.

— متى؟

— عندما نرى أولاً ماذا فعلت هذه الأدوات به.

رفع الذئب رأسه.

— تقصد على الأرض؟

أجاب الأسد:

— نعم.

إذا كان النصيب المفروض قد حاول السيطرة...

وإذا استخدم الإغواء والإضلال...

وإذا ظهرت السلطة والخوف والتقسيم وصناعة العدو...

فالسؤال الآن ليس:

كيف يعمل؟

بل:

ماذا صنع بالإنسان؟

سكت الجميع.

ثم قال الأسد:

— هناك فرق بين أن تسيطر على إنسان...

وأن تدمر الإنسان الذي بداخله.

رفع الغراب رأسه.

— وهل وصل الأمر إلى ذلك؟

نظر الأسد إلى الظلام الممتد خلف الأشجار.

وقال:

— هذا ما سنبحث عنه في الفصل القادم.

حين وصل النصيب المفروض إلى الإنسان... ماذا فعل بالإنسانية؟

الفصل الثاني عشر

الجيت — حين صار الوهم أداة

قال الغراب:

— لكنني ما زلت لا أفهم.

رفع الأسد رأسه.

— ماذا؟

— ما علاقة الجيت بالنصيب المفروض؟

ساد الصمت.

ثم قال الأسد:

— الآن وصلنا إلى السؤال الحقيقي.

اقتربت الحيوانات.

قال الأسد:

— إذا كان النصيب المفروض هو الفكرة التي تريد أن تجعل الإنسان يظن أن ما فُرض عليه هو قدره...

فهو يحتاج إلى أدوات.

— أي أدوات؟

— أدوات تجعل الإنسان يقبل.

— بالقوة؟

— أحياناً.

— وبالخوف؟

— نعم.

— وبالسطة؟

— نعم.

ثم سكت الأسد قليلاً.

وقال:

— وبالوهم.

قالت البومة:

— وهنا يأتي الجبت؟

أجاب الأسد:

— هنا تبدأ فرضيتنا.

نحن لا نقول إن القرآن عرّف الجبت بأنه «النصيب المفروض».

لم يفعل.

لكننا نسأل:

إذا كان النصيب المفروض يريد أن يحوّل الاختيار البشري إلى شيء يبدو كأنه حقيقة لا يجوز الشك فيها...

فهل يمكن أن يكون الجبت إحدى الأدوات التي تحقق ذلك؟

قال الذئب:

— وضّح أكثر.

قال الأسد:

— النصيب المفروض يقول للإنسان:

اقبل ما فرض عليك.

لكن الإنسان قد يسأل:

لماذا؟

ومن قال ذلك؟

وأين الدليل؟

وهنا تظهر الحاجة إلى شيء آخر.

شيء يجعل الإنسان لا يسأل أصلاً.

أو يسأل...

ثم يخاف من الإجابة.

أو يسمع جواباً لا يستطيع اختباره.

أو يصدق شيئاً لأنه قيل له إنه مقدس.

قال الغراب:

— إذن الجبت يجعل الفكرة قابلة للتصديق؟

— هذه إحدى فرضياتنا.

قال الأسد.

— والنصيب المفروض يحتاج إلى التصديق حتى يستمر.

فالفكرة التي تُفرض بالسيف قد تسقط عندما يسقط صاحب السيف.

أما الفكرة التي تدخل عقل الإنسان...

فقد تستمر بعد موت صاحبها.

قالت البومة:

— إذن هناك فرق بينهما.

قال الأسد:

— نعم.

النصيب المفروض هو المسار.

أما الجبت — إذا صمدت فرضيتنا أمام القرآن — فقد يكون واحدة من الأدوات التي تجعل المسار ممكناً داخل الإنسان.

قال الحصان:

— وكيف؟

قال الأسد:

— تخيلوا إنساناً يولد في جماعة.

يقال له:

هذه حقيقتك.

وهذا تاريخك.

وهذه حدودك.

وهذا عدوك.

وهذا ما يجب أن تؤمن به.

ثم يُضاف:

وهناك قوى لا تراها.

وأسرار لا تعرفها.

ومن يخالفها يعاقب.

ومن يطيعها ينجو.

ثم يتكرر الكلام...

جيلاً بعد جيل.

حتى يصبح الخوف معرفة.

والوهم حقيقة.

والرواية قدرًا.

قال الذئب:

— وعندها لا يحتاج النصيب المفروض إلى أن يفرض نفسه بالقوة.

قال الأسد:

— بالضبط.

لأن الإنسان أصبح يحمل النصيب المفروض داخل عقله.

قال الغراب:

— وهذا يعني أن أخطر مرحلة ليست عندما يُجبر الإنسان على الإيمان...

بل عندما يصبح مقتنعًا أنه اختار الإيمان بنفسه.

نظر الأسد إليه.

— نعم.

ثم قال:

— وهنا تصبح العلاقة بين الجبت والنصيب المفروض أكثر وضوحًا.

النصيب المفروض يريد أن يصنع قبولًا.

والجبت — وفق الفرضية التي نختبرها — يمكن أن يكون من الأدوات التي تصنع هذا القبول عبر الوهم أو الاعتقاد الباطل.

لكن علينا أن نثبت ذلك من القرآن، لا أن نفترضه ثم نبحث عن آية تؤيده.

قالت البومة:

— وماذا عن الطاغوت؟

قال الأسد:

— إذا استطعنا أن نثبت الفروق، فقد تصبح الصورة هكذا:

الشیطان يُغوي.

الجبت يجعل الباطل قابلاً للتصديق.

الطاغوت يتحول إلى سلطة تُتبع أو يُتَحاكم إليها.

أما النصيب المفروض...

فهو الإطار الذي يجمع هذه الآليات عندما تعمل معًا لتحويل الإنسان من صاحب اختيار إلى تابع لما فُرض عليه.

ثم رفع إصبعه:

— لكن هذه خريطة فرضية.

وليست تعريفًا قرآنياً جاهزاً.

قال الثعلب:

— وإذا كانت صحيحة؟

قال الأسد:

— عندها نفهم شيئاً مخيفاً.

قد لا يحتاج النصيب المفروض إلى أن يقف أمام الإنسان ويقول:

سأسيطر عليك.

قد يقول له:

أنا الحقيقة.

ثم يترك الإنسان يقوم بالباقي.

ساد الصمت.

قال الحصان:

— فيؤمن.

قال الذئب:

— ثم يدافع.

قالت البومة:

— ثم يورث.

قال الغراب:

— ثم يصبح هو نفسه أداة في يد الفكرة.

نظر الأسد إليهم.

وقال:

— وهنا تتحول الضحية إلى حارس للسلسلة.

ثم فتح الأسد القرآن من جديد.

وقال:

— لكننا لم ننته.

لدينا الآن ثلاثة أسئلة:

ما هو الجبت؟

ما علاقته بالطاغوت؟

و

هل تكشف هذه العلاقة عن أدوات يستخدمها النصيب المفروض للسيطرة على الإنسان؟

ثم أغلق الكتاب.

— إذا لم يصمد هذا أمام القرآن...

فسنسقطه.

وإذا صمد...

سنذهب خطوة أخرى.

قال الغراب:

— إلى أين؟

نظر الأسد إلى الظلام.

وقال:

— إلى الإنسان نفسه.

لأن أخطر انتصار للنصيب المفروض ليس أن يجعل الإنسان يطيعه...

بل أن يجعله يظن أن ما يطيعه هو اختياره هو.

الفصل الثالث عشر

حين أصرحت الرواية أقوى من الوحي

كان الليل قد عاد.

لكن هذه المرة لم يجلس الغراب بعيداً عن الأسد.

اقترب منه وقال:

— فهمت الجيت.

نظر إليه الأسد.

— ماذا فهمت؟

— أن الإنسان قد يؤمن بشيء حتى يصبح الوهم عنده حقيقة.

قال الذئب:

— وفهمنا الطاغوت.

— ماذا؟

— أن الإنسان قد يطيع سلطة وهو يظن أنه يطيع الحق.

قالت البومة:

— لكن بقي شيء أخطر.

رفع الأسد رأسه.

— ما هو؟

قالت:

— ماذا يحدث عندما تتحول الرواية نفسها إلى سلطة؟

لم يجب الأسد.

كان يعرف أن السؤال قد وصل إلى مكان أكثر خطورة.

قال الغراب:

— الإنسان كان لديه وحي.

— نعم.

— وكان يستطيع أن يقرأه.

— نعم.

— فلماذا احتاج إلى رواية أخرى؟

قال الأسد:

— هنا يجب أن نكون دقيقين.

الرواية ليست دائماً عدوًا.

والتاريخ ليس كله باطلاً.

والتراث ليس كتلة واحدة.

فيه معرفة.

وفيه تجارب بشرية.

وفيه اجتهاد.

وفيه أخطاء.

وفيه صراعات.

وفيه سلطات.

لكن السؤال الذي نبحث عنه هو:

ماذا يحدث عندما تُرفع بعض الروايات البشرية إلى منزلة تجعلها فوق النقد؟

قال الذئب:

— وكيف يحدث ذلك؟

قال الأسد:

— يبدأ الأمر صغيراً.

يحدث شيء.

ثم يرويّه شخص.

ثم يرويّه آخر.

ثم يُفسّر.

ثم يُجمع.

ثم يُرتّب.

ثم يصبح له أصحاب.

ثم يصبح له حراس.

ثم يأتّي جيل جديد...

فيجد الرواية جاهزة.

قالت البومة:

— لكنه يستطيع أن يسأل.

— يستطيع.

— فلماذا لا يسأل؟

قال الأسد:

— لأنه قد يُقال له:

هكذا وجدنا آباءنا.

وهكذا قال العلماء.

وهكذا قالت الجماعة.

وهكذا فهم النص.

وهكذا يجب أن تفهمه.

ثم يأتي السؤال الأخطر:

من أنت حتى تخالف كل هؤلاء؟

قال الغراب:

— وهنا يبدأ الخوف.

— نعم.

قال الأسد.

— ليس الخوف من الله.

بل الخوف من مخالفة البشر الذين تكلموا باسم الله.

قال الحصان:

— ولكن كيف تصبح الرواية أقوى من الوحي؟

نظر الأسد إليه.

— عندما يصبح الإنسان يقيس الوحي بالرواية بدل أن يقيس الرواية بالوحي.

ساد الصمت.

تابع:

— عندما يجد نصاً قرآنياً واضحاً...

ثم تأتيه رواية بشرية فتقول له:

لا.

المقصود ليس هذا.

وعندما يجد معنى ينسجم مع القرآن...

ثم يقال له:

لا يجوز أن تفهمه بنفسك.

وعندما يسأل:

أين الدليل؟

فيأتيه الجواب:

قال فلان.

ثم يسأل:

وأين الدليل على قول فلان؟

فيقال له:

هكذا وجدناه.

قال الذئب:

— إذن أصبحت السلسلة أهم من النص.

— قد يحدث ذلك.

قال الأسد.

— وهنا يجب أن ننتبه.

ليس كل تراث تحريفاً.

لكن يمكن أن يحدث التحريف عندما تتحول القراءة البشرية إلى سلطة تمنع العودة إلى الأصل.

قالت البومة:

— وهل هذا هو عمل الشيطان؟

أجاب الأسد:

— لا نستطيع أن ننسب كل خطأ بشري إلى الشيطان.

لكن القرآن يعطينا مفهوماً مهماً:

التزيين.

أن يرى الإنسان شيئاً على صورة أفضل مما هو عليه.

وقد يكون أخطر تزيين...

أن يرى الإنسان كلام البشر وكأنه لا يخطئ.

قال الغراب:

— لكن بعض الناس قد يقولون:

نحن لا نضع كلام البشر فوق الوحي.

قال الأسد:

— إذن فلنختبر الأمر.

إذا تعارضت رواية مع نص قرآني واضح...

أيُّهما يُقدِّم؟

إذا تعارض تفسير بشري مع سياق القرآن...

أيُّهما يُقدِّم؟

إذا قال الموروث شيئاً ولم يقله القرآن...

هل نقول:

هذا قرآن؟

أم نقول:

هذه قراءة بشرية؟

قال الذئب:

— الفرق كبير.

— جداً.

قال الأسد.

— لأن المشكلة لا تبدأ عندما يقرأ الإنسان التراث.

المشكلة تبدأ عندما يفقد القدرة على التمييز بين الوحي وفهم الإنسان للوحي.

قال الحصان:

— وهل هذا ما تسميه النصيب المفروض؟

رفع الأسد عينيه إليه.

— الآن وصلنا إلى قلب الفرضية.

قال:

— إذا كان النصيب المفروض يريد أن يجعل الإنسان يعيش داخل إطار لم يختره...

فإن أقوى وسيلة ليست أن تمنعه من قراءة الوحي.

بل أن تسمح له بقراءته...

ثم تعطيه قبل القراءة النتيجة التي يجب أن يصل إليها.

قال الغراب:

— كيف؟

قال الأسد:

— تعطيه الرواية أولاً.

ثم التفسير.

ثم الحدود.

ثم الخوف من السؤال.

ثم تقول له:

الآن اقرأ الوحي.

فيقرأ...

لكن عينيه تبحثان عن شيء واحد:

كيف أجد في الوحي ما يثبت ما قيل لي؟

قالت البومة:

— فيصبح القرآن شاهداً للرواية بدل أن تكون الرواية خاضعة للقرآن.

— نعم.

قال الأسد.

— وهذه نقطة خطيرة جداً.

لأن الإنسان قد لا يرفض الوحي.

قد يفعل شيئاً أخطر:

اقرأ الوحي من خلال رواية سابقة عليه.

قال الذئب:

— وهذا يشبه ما فعلناه في قصتنا .

نظر إليه الأسد .

— كيف؟

— بدأنا بفرضية «النصيب المفروض» .

ثم كنا نبحث عن الأدوات .

فقال الأسد:

— ولهذا حذرتكم منذ البداية .

إذا بدأنا بفرضية...

ثم أجبرنا القرآن على تأييدها...

فقد أصبحنا نحن جزءاً من المشكلة .

سكت الجميع .

ثم قال الغراب:

— إذن حتى نحن يمكن أن نقع في الفخ .

ابتسم الأسد .

— نعم .

وهذا هو الاختبار الحقيقي .

أن تكون مستعداً لأن يسقط ما بنيته .

قالت البومة:

— ولكن ماذا عن التاريخ؟

قال الأسد:

— التاريخ أخطر من الرواية أحياناً .

لأن الناس يحبون القصة المكتملة.

يحبون أن يعرفوا:

من البطل؟

من الشرير؟

من بدأ؟

من انتصر؟

لكن التاريخ البشري أكثر تعقيداً.

قد يكتب المنتصر روايته.

وقد يكتب المهزوم روايته.

وقد تختفي أصوات كثيرة.

وقد تتحول الرواية بعد قرون إلى «حقيقة» لا يسأل أحد عن مصدرها.

قال الغراب:

— وهنا يمكن للنصيب المفروض أن يعمل.

قال الأسد:

— إذا ثبتت العلاقة تاريخياً، نعم.

لا نريد أن نخترع مؤامرة شاملة.

نريد أن نبحث عن آليات موثقة:

من كتب؟

من جمع؟

من حذف؟

من فسّر؟

من امتلك السلطة؟

ومن استفاد من انتشار رواية معينة؟

قال الذئب:

— وهل يمكن أن يتحول التاريخ نفسه إلى أداة للسيطرة؟

قال الأسد:

— بالتأكيد يمكن.

إذا قلت لجماعة:

أنتم أصحاب الحقيقة منذ البداية.

وهم أعداؤكم منذ البداية.

وهذه الأرض لكم.

وهذا الدم ثأر.

وهذه الهزيمة مؤامرة.

وهذا الانتصار وعد.

فأنت لم تعد تروي التاريخ فقط.

أنت تصنع سلوك المستقبل من خلال الماضي.

قالت البومة:

— إذن الماضي يمكن أن يحكم الحاضر.

— نعم.

— والحاضر يعيد إنتاج الماضي.

— نعم.

— ثم يصبح المستقبل نسخة منه.

نظر الأسد إليها.

— وهنا يصبح «النصيب المفروض» أخطر.

لأنه لا يحتاج إلى أن يفرض المستقبل مباشرة.

يكفي أن يفرض طريقة قراءة الماضي.

قال الحصان:

— ولكن أين الوحي في كل هذا؟

رفع الأسد الكتاب.

وقال:

— هنا.

الوحي لا يحتاج إلى حارس يمنع السؤال.

ولا يخاف من البحث.

ولا يحتاج إلى أن نمنح البشر العصمة.

بل يدعو الإنسان إلى النظر والتعقل والتدبر.

ولهذا فإن أخطر ما يمكن أن يحدث...

هو أن تصبح الرواية البشرية حجاباً بين الإنسان والوحي.

قال الغراب:

— حجاباً؟

— نعم.

ليس بالضرورة أن تمنع الإنسان من فتح الكتاب.

قد تسمح له أن يفتحه كل يوم.

لكنها تقول له قبل أن يفتحه:

ماذا يجب أن ترى.

ساد الصمت.

ثم قال الذئب:

— وهذه هي السيطرة.

قال الأسد:

— ربما تكون واحدة من صورها.

ثم أضاف:

— لكن انتبهوا.

لا نقول إن كل عالم أو مفسر أو راوٍ كان يريد السيطرة.

ولا نقول إن كل تراث مؤامرة.

هذا تبسيط للتاريخ.

نحن نبحث عن النتيجة والآلية، لا عن نوايا لا نستطيع إثباتها.

قالت البومة:

— إذن ما علاقة الشيطان بكل هذا؟

قال الأسد:

— هنا تصبح الصورة أكثر إثارة.

الشيطان، بحسب القرآن، لا يملك سلطاناً يجبر الإنسان.

إنه يدعو ويزين.

فإذا وجد الإنسان رواية موروثة...

قد يأتي الإغواء لجعلها أعظم مما هي.

يجعل الإنسان يقدسها.

يخاف من نقدها.

يدافع عنها.

ثم يورثها.

ثم يأتي الجيل التالي...

فيظن أن الدفاع عنها دفاع عن الله.

قال الغراب:

— مع أنها رواية بشرية.

— نعم.

قال الأسد.

— وهنا يحدث أخطر اختلاط:

الوحي.

ثم:

فهم الوحي.

ثم:

الرواية عن فهم الوحي.

ثم:

الرواية عن الرواية.

ثم تأتي أجيال لا تعرف أين انتهى الوحي...

وأين بدأ الإنسان.

قال الذئب:

— فإذا لم يفرق الإنسان بينهما...

قال الأسد:

— يصبح كل اعتراض على الرواية اعتراضاً على الدين.

قال الحصان:

— وهنا يُغلق باب السؤال.

— نعم.

قال الأسد.

— وهنا تصبح الرواية أقوى من الوحي في حياة الإنسان...

حتى لو ظل الوحي مفتوحاً أمامه.

رفع الغراب رأسه.

— إذن النصيب المفروض لا يحتاج إلى تغيير الوحي.

قال الأسد:

— هذه نقطة مهمة.

قد لا يحتاج إلى تغيير النص نفسه.

يكفي أن يغير الطريق الذي يصل به الإنسان إلى النص.

لم يتكلم أحد.

تابع الأسد:

— فإذا أصبح الإنسان لا يستطيع أن يقرأ إلا من خلال سلطة بشرية...

فقد أصبح الطريق محكوماً.

وإذا أصبح لا يستطيع أن يسأل إلا بإذن...

فقد أصبح السؤال محكوماً.

وإذا أصبح لا يستطيع أن يخالف الرواية دون أن يُتهم بالخروج...

فقد أصبحت الرواية أقوى من صاحبها.

قالت البومة:

— وأين ينتهي هذا؟

نظر الأسد إلى الأفق.

وقال:

— عندما يصبح الإنسان قادراً على قتل أخيه...

وهو يعتقد أنه يدافع عن الله.

ارتجف الحصان.

قال:

— هل حدث ذلك؟

أجاب الأسد:

— هذا ما سنبحث عنه.

لا نريد قصصاً مخيفة.

نريد أدلة.

نريد أن نرى ماذا حدث على الأرض فعلاً.

كيف استُخدمت الرواية؟

كيف استُخدم المقدس؟

كيف استُخدم الخوف؟

كيف تحولت الاختلافات إلى عداوات؟

وكيف استطاع الإنسان أن يفعل بأخيه ما ربما لم يكن ليفعله لو رآه إنساناً فقط؟

ثم أغلق الأسد الكتاب.

وقال:

— الآن فهمنا شيئاً.

النصيب المفروض لا يحتاج دائماً إلى أن يحارب الوحي.

قد يكون أخطر ما يفعله...

أن يجعل الإنسان يظن أنه يدافع عن الوحي...

بينما هو يدافع عن رواية بشرية حول الوحي.

قال الغراب:

— وإذا اكتشف الإنسان ذلك؟

ابتسم الأسد.

— تبدأ السلسلة في الانكسار.

— وكيف؟

— بسؤال بسيط.

رفع الأسد الكتاب.

وقال:

أين قال الله ذلك؟

ساد الصمت.

ثم أضاف:

— ليس السؤال:

من قاله قبلي؟

ولا:

كم شخصاً قاله؟

ولا:

كم عمر هذه الرواية؟

ولا:

كم عالمًا تبناها؟

السؤال الأول هو:

أين قال الله ذلك؟

نظر الغراب إلى الكتاب.

ثم قال:

— وإذا لم نجده؟

أجاب الأسد:

— لا نحوله إلى وحي.

— وإذا وجدنا عكسه؟

— نراجع الرواية.

— وإذا لم نعرف؟

— نقول:

لا نعلم.

ثم نظر الأسد إلى الجميع.

وقال:

— لأن أخطر انتصار للنصيب المفروض...

ليس أن يمنع الإنسان من الوحي.

بل أن يجعله يقف أمام الوحي...

ثم يصدق البشر أكثر مما يصدق كلام الله.

رفع الغراب رأسه.

— وماذا فعل ذلك بالإنسان؟

لم يجب الأسد.

فقد كان السؤال قد انتقل أخيراً من الكتب...

إلى الأرض.

إلى المدن.

إلى الحروب.

إلى الإنسان نفسه.

وقال الأسد:

— الآن نرى الثمن.

عصر الخديعة الكبرى

قال الأسد:

— وصلنا إلى نقطة لا يمكن عندها أن نعود إلى الوراء.

نظر الذئب إليه:

— ماذا تقصد؟

— درسنا إبليس.

درسنا الإغواء.

درسنا النصيب المفروض.

ورأينا كيف يمكن للفكرة أن تتحول إلى سلطة، وكيف يمكن للسلطة أن تتحول إلى رواية، وكيف يمكن للرواية أن تصبح ديناً أو هوية أو نظاماً لا يُسمح لأحد بمساءلته.

قال الغراب:

— لكننا لم نر التاريخ كله.

— وهذا ما سنفعله الآن.

ساد الصمت.

ثم قال الأسد:

— لنبدأ من البداية.

ليس من بداية دولة.

ولا من بداية شعب.

بل من الإنسان نفسه.

قبل أن يكتب الإنسان تاريخه

قبل نحو عشرين ألف سنة، كان الإنسان يعيش في عالم مختلف تماماً عن عالمنا.

لم تكن هناك إمبراطوريات.

ولا كتب.

ولا دول بالمعنى الذي نعرفه.

كان الإنسان يبحث عن الطعام، ويحتمي من الطبيعة، ويصنع أدواته، ويعيش ضمن جماعات صغيرة، ويحاول أن يفهم العالم من حوله.

قالت البومة:

— وهل كان النصيب المفروض موجوداً آنذاك؟

أجاب الأسد:

— هنا يجب أن ننتبه.

لا نملك نصّاً تاريخياً يقول ذلك.

ولا يجوز أن نضع فكرة حديثة أو فرضية قرآنية داخل مجتمع لم يترك لنا سجلاً مكتوباً.

لكن يمكننا أن نسأل سؤالاً آخر:

متى بدأ الإنسان يستطيع أن يحوّل الفكرة إلى نظام؟

عندما بدأ الإنسان يستقر.

وعندما ظهرت الزراعة.

ثم القرى.

ثم المدن.

ثم المخازن.

ثم الملكية.

ثم القوانين.

ثم السلطة.

ثم الكتابة.

وهنا حدث شيء مهم.

لم تعد الفكرة تموت بموت صاحبها.

أصبحت تُكتب.

وتُحفظ.

وتُنقل.

وتُعلم.

وتُورث.

قال الثعلب:

— أي أن الفكرة أصبحت قادرة على عبور الزمن؟

— نعم.

وهنا تبدأ المشكلة.

لأن الفكرة حين تعبر الزمن، يمكن أن تتحول من رأي إلى تقليد.

ومن تقليد إلى هوية.

ومن هوية إلى سلطة.

ومن سلطة إلى حقيقة لا يسمح أحد بالاقتراب منها.

من الفكرة إلى الدولة

ظهرت الممالك.

ثم الإمبراطوريات.

وأصبح الإنسان يملك أدوات لم تكن موجودة من قبل:

الجيش.

الضرائب.

القانون.

السجن.

الحدود.

والكتابة.

وأحياناً — وهذا مهم — السلطة الدينية.

قال الذئب:

— هل كل ملك استخدم الدين للسيطرة؟

— لا.

قال الأسد بحزم:

— لا نريد أن نرتكب الخطأ نفسه الذي نحاول كشفه.

لسنا أمام قاعدة تقول إن كل ملك كان طاغية، أو إن كل دين استخدم للسيطرة.

نحن نبحث عن الآلية.

فإذا استطاعت السلطة أن تجعل أمراً بشرياً يبدو كأنه أمر مقدس، فإن مقاومته تصبح أصعب.

وإذا استطاعت الرواية أن تجعل الإنسان يعتقد أن النظام الذي يعيش فيه هو قدر لا يمكن تغييره، فقد أصبح القيد أقوى من السلسلة.

إسرائيل

قالت البومة:

— ومتى يدخل إسرائيل في هذه القصة؟

رفع الأسد رأسه.

— هنا يجب أن نعود إلى القرآن.

لأننا إذا بدأنا من التاريخ وحده، سنضيع بين آلاف الروايات.

أما القرآن فيعطينا نقطة مختلفة.

إسرائيل اسم يرد في القرآن.

وبنو إسرائيل يردون في القرآن.

ويعقوب يرد باسمه.

وهذا وحده يجعلنا نتوقف.

فالقرآن لا يعطينا ببساطة معادلة تقول:

إسرائيل = كل بني إسرائيل = كل اليهود عبر التاريخ.

بل علينا أن نفصل بين الأسماء والوقائع والأزمنة.

قال الغراب:

— لكنك ترى أن بداية التحالف كانت هنا؟

سكت الأسد قليلاً.

ثم قال:

— هذه هي الفرضية التي نختبرها.

ليس لأن القرآن يقول لنا في جملة واحدة:

«إبليس تحالف مع إسرائيل».

لا توجد هذه الجملة.

لكننا رأينا في مسار بحثنا شيئاً دفعنا إلى طرح السؤال:

هل يمكن أن يكون ما بدأ عند إسرائيل لم يكن مجرد موقف فردي، بل نقطة في سلسلة أكبر من الإغواء والانقسام والانتقال إلى الذرية؟

إذا كانت الفرضية صحيحة، فالموت لا ينهيها.

لأن الفكرة يمكن أن تنتقل.

والاختيار يمكن أن يتحول إلى ميراث.

والميراث يمكن أن يتحول إلى هوية.

والهوية يمكن أن تتحول إلى نظام.

وهنا يبدأ التاريخ الذي نعرفه.

الذرية

مات الإنسان.

لكن أفكاره بقيت.

وهذه واحدة من أخطر خصائص الأفكار.

أن صاحبها قد يموت، بينما تستمر هي في عقول الآخرين.

جيل بعد جيل.

قال الحصان:

— وهل كل من ورث الفكرة يصبح شريكاً فيها؟

— لا.

قال الأسد:

— وهذه نقطة لا يجوز أن نسقطها.

القرآن نفسه يمنعنا من تحويل الإنسان إلى مجرد امتداد لأسلافه.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾.

إذن نحن لا نتحدث عن دم.

ولا عن عرق.

ولا عن شعب كامل.

نتحدث عن مسار فكري وسلوكي يمكن أن يرثه بعض الناس، ويمكن لآخرين أن يرفضوه.

وهنا يصبح السؤال أخطر:

ماذا يحدث عندما تتحول الفكرة إلى هوية؟

من الهوية إلى الرواية

مرت القرون.

وتغيّرت الممالك.

وتغيرت اللغات.

وتغيرت الأسماء.

لكن الإنسان بقي يحمل معه شيئاً لا يموت بسهولة:

الرواية.

رواية من نحن؟

من أين جئنا؟

من عدونا؟

من يملك الحقيقة؟

ومن يملك حق تفسيرها؟

ومن يجب أن نطيعه؟

وهنا بدأت طبقة جديدة من الخديعة.

لم تعد السيطرة تحتاج دائماً إلى القوة.

يمكن للرواية أن تقوم بالمهمة.

إذا أقنعت الإنسان أن الآخر عدوه، فسوف يحاربه.

إذا أقنعت أن الطاعة مقدسة، فسوف يطيع.

إذا أقنعت أن السؤال خيانة، فسوف يخاف من السؤال.

وإذا أقنعت أن ما ورثه هو الحقيقة المطلقة، فسوف يدافع عن الموروث وكأنه يدافع عن الوعي نفسه.

من إسرائيل إلى التاريخ

هرت المنطقة بممالك وشعوب وإمبراطوريات.

بابل.

فارس.

اليونان.

روما.

ثم عصور طويلة من التحولات الدينية والسياسية والثقافية.

لم تكن هذه القوى كلها جزءاً من خطة واحدة.

ولا نملك دليلاً على أن كل حدث تاريخي كان حلقة في سلسلة واحدة.

لكن فرضيتنا تقول شيئاً آخر:

ربما لم تكن الخديعة في بقاء أصحابها، بل في بقاء الآليات.

إبليس لا يحتاج إلى أن يبقى الشخص نفسه.

يكفي أن تبقى الفكرة.

والخوف لا يحتاج إلى الحاكم نفسه.

يكفي أن يجد حاكماً جديداً.

والطاغوت لا يحتاج إلى الاسم نفسه.

يكفي أن يجد سلطة جديدة يقبل الإنسان أن يتحاكم إليها.

والجبت لا يحتاج إلى صورة واحدة.

يكفي أن يجد وهمًا جديدًا يؤمن به الإنسان.

التلمود والكبالا

قال الغراب:

— وماذا عن التلمود والكبالا؟

نظر الأسد إليه.

— نصل إليهما، لكن بحذر.

التلمود تاريخ طويل من النقاشات والتقاليد والتفسيرات والأحكام في اليهودية، والكبالا تيارات صوفية/باطنية يهودية تطورت في مراحل تاريخية لاحقة.

لا نضعهما في سلة واحدة.

ولا نقول إنهما «خطة إبليس» لمجرد أنهما جاءا بعد إسرائيل.

لكننا نسأل السؤال الذي يهمنا:

ماذا يحدث عندما تصبح الرواية البشرية وسيطاً لا يستطيع الإنسان الوصول إلى النص إلا من خلاله؟

هنا تعود إلينا المشكلة التي رأيناها من قبل.

الوحي شيء.

وفهم الإنسان للوحي شيء آخر.

والرواية عن فهم الإنسان شيء ثالث.

والرواية عن الرواية شيء رابع.

كل طبقة يمكن أن تضيف شيئاً.

وكل طبقة يمكن أن تبتعد عن الأصل.

وهنا يصبح السؤال:

أين قال الله ذلك؟

حين أصرحت الخديعة عالماً

ثم تغير العالم مرة أخرى.

ظهرت الدول الحديثة.

والاستعمار.

والقومية.

والصحافة.

والإذاعة.

والسينما.

والتلفزيون.

ثم الإنترنت.

ثم الهاتف.

ثم الخوارزميات.

كل مرحلة أعطت الإنسان أداة جديدة للتأثير في الإنسان.

في الماضي كان الحاكم يحتاج إلى منبر.

ثم أصبح لديه مطبعة.

ثم صحيفة.

ثم إذاعة.

ثم شاشة.

ثم شبكة إعلامية.

واليوم يستطيع نظام رقمي أن يعرف ما الذي يجذب انتباهك، ثم يعرض لك المزيد منه.

قال الذئب:

— هل هذه هي الخديعة الكبرى؟

قال الأسد:

— ربما.

لكننا لم نصل إلى النهاية بعد .

لأن الأدوات لا تصنع الخديعة وحدها .

الإنسان هو الذي يستخدمها .

القرن العشرون

شهد الإنسان حروباً عالمية .

وشهد صعود القوميات المتطرفة .

وشهد الدعاية الجماهيرية .

وشهد الإبادة والتهجير .

وشهد الأسلحة التي تستطيع تدمير مدن كاملة .

ثم دخل العالم مرحلة جديدة بعد الحرب العالمية الثانية .

وفي عام 1945 تأسست الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية، وأصبح ميثاقها نافذاً في 24 أكتوبر من ذلك العام .

قال الحصان:

— أَلَمْ يتعلم الإنسان؟

قال الأسد:

— حاول .

لكن محاولة التعلم شيء .

والنجاح في التعلم شيء آخر .

فلسطين

ثم وصلنا إلى واحدة من أكثر العقد تعقيداً في التاريخ الحديث .

فلسطين .

في عام 1947 أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة خطة لتقسيم فلسطين إلى دولة يهودية ودولة عربية، مع وضع خاص للقدس .

وفي عام 1948 أعلن قيام دولة إسرائيل، واندلعت الحرب، وحدث نزوح واسع للفلسطينيين .

وفي عام 1949 أصبحت إسرائيل عضواً في الأمم المتحدة .

ثم جاءت حرب 1967، التي أدت إلى احتلال إسرائيل للضفة الغربية، بما فيها القدس الشرقية، وقطاع غزة، وأراضٍ أخرى، وصدر بعدها قرار مجلس الأمن 242 .

قال الغراب:

— وهل كل ذلك جزء من الخطة التي بدأت مع إسرائيل؟

صمت الأسد.

ثم قال:

— هنا يجب أن نفرّق بين ما نعرفه وما نفترضه.

هذه أحداث تاريخية موثقة.

أما القول بأنها كلها حلقات مقصودة في مؤامرة واحدة بدأت منذ إسرائيل، فذلك استنتاج الرواية، وليس حقيقة تاريخية ثبتت لنا.

لكن السؤال لا يزال قائماً:

إذا كان إبليس قد بدأ الإغواء، وإذا كان إسرائيل قد اختار مساراً، وإذا كانت الفكرة قد انتقلت إلى الذرية، فهل يمكن أن تكون بعض التحولات التاريخية اللاحقة قد أصبحت ساحات جديدة لعمل الآليات نفسها؟

هذه هي فرضيتنا.

وليست حكماً نهائياً.

من المؤامرة إلى الاختبار

قالت البومة:

— إذن نحن لا نقول إن كل شيء كان مرتباً منذ عشرين ألف سنة؟

ضحك الأسد:

— لو قلنا ذلك، لتحولت فرضيتنا إلى عقيدة جديدة.

نحن نقول شيئاً أخطر وأصعب:

ربما كانت هناك بداية.

وربما كان هناك تحالف.

وربما انتقلت آثاره من جيل إلى جيل.

لكن التاريخ نفسه يجب أن يبقى أمامنا.

نقرأه.

نختبره.

نبحث عن الأدلة.

ونفصل بين ما يقوله القرآن، وما يقوله التاريخ، وما تقوله فرضيتنا.

فإذا وجدنا حدثاً لا ينسجم معها، فلا ندفعه.

بل نسأل:

هل الفرضية خاطئة؟

أم أن الرابط الذي ظنناه غير موجود؟

أم أننا لم نفهم الآلية بعد؟

قال الثعلب:

— وماذا عن عام 2030؟

نظر الأسد إلى الأفق.

— نحن لم نصل إلى المستقبل بعد.

لكننا نعيش في عصر أصبحت فيه الخديعة أكثر سرعة.

الفكرة تستطيع أن تعبر القارات في ثوانٍ.

الرواية تستطيع أن تصل إلى ملايين البشر قبل أن يتحقق أحد من مصدرها.

والخوارزمية تستطيع أن تختار لك ما تراه.

والإنسان قد لا يشعر أصلاً أن أحداً اختار له.

وهنا تعود الجملة التي بدأت منها قصتنا:

النصيب المفروض.

ليس بالضرورة أن يقول لك أحد:

«سأجبرك».

قد يكفي أن يبني لك العالم الذي تختار داخله.

نظر الأسد إلى الحيوانات من حوله.

وقال:

— ربما تغيّرت الأدوات.

لكن السؤال لم يتغير.

من يغوي؟

من يضلّل؟

من يصنع الخوف؟

من يصنع العدو؟

من يملك الرواية؟

من يملك السلطة؟

ومن يقنع الإنسان أن ما اختاره بنفسه هو الشيء الذي فرض عليه منذ البداية؟

سكت الجميع.

ثم قال الذئب:

— وإذا كانت فرضيتنا صحيحة... فما الذي فعلته هذه الآليات بالإنسان نفسه؟

رفع الأسد عينيه.

— الآن بدأنا نقترّب من الثمن.

الفصل الخامس عشر

حين بدأ الإنسان يدمر الإنسان

ساد الصمت.

لم يتكلم أحد.

كان السؤال الذي طرحه الذئب أثقل من كل الأسئلة السابقة:

— ماذا فعلت هذه الآليات بالإنسان نفسه؟

نظر الأسد إلى الحيوانات من حوله.

ثم قال:

— فعلت به أكثر مما كنا نتصور.

لقد بدأ الأمر بفكرة.

ثم صار إغواءً.

ثم خوفًا.

ثم سلطة.

ثم رواية.

ثم انقسامًا.

ثم عدوًا.

ثم أصبح الإنسان قادرًا على أن يفعل بأخيه الإنسان ما لم تكن الطبيعة نفسها لتفعله.

حين صار الإنسان عدو الإنسان

قال الغراب:

— لماذا؟

أجاب الأسد:

— لأن أخطر مرحلة ليست أن يضل الإنسان وحده.

بل أن ينجح في إقناع إنسان آخر بأن ضلاله حق.

عندها يصبح الظلم واجبًا.

والقتل بطولية.

والاستعباد نظامًا.

والكراهية دفاعًا.

والانتقام عدلاً.

ويصبح الإنسان مستعدًا لتدمير أخيه، لا لأنه يكرهه فقط، بل لأنه يعتقد أنه يفعل الصواب.

قالت البومة:

— إذن لم يعد الشيطان بحاجة إلى أن يفعل كل شيء بنفسه.

— بالضبط.

يكفي أن يجعل الإنسان يفعل ذلك للإنسان.

من يملك الإنسان؟

قال الثعلب:

— لكننا تحدثنا عن إبليس كثيرًا.

أين ينتهي دوره؟

قال الأسد:

— هنا يجب أن نعود إلى القرآن.

إبليس لا يملك الإنسان كما يملك صاحبه شيئًا.

هو يغوي.

يوسوس.

يزين.

يدعو.

لكن الإنسان يختار.

ولهذا لا يستطيع الإنسان يوم الحساب أن يقول:

«إبليس أجبرني».

فقد جاء في القرآن على لسان الشيطان:

﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

ساد الصمت من جديد.

قال الحصان:

— إذن الشيطان لا يجبر؟

— هذه هي النقطة.

الإغواء ليس إلغاءً للاختيار.

ولهذا تصبح المسؤولية على الإنسان نفسه.

ثم يخلفون

قال الذئب:

— وماذا يحدث عندما ينتهي كل شيء؟

قال الأسد:

— هنا تبدأ المواجهة التي لم نرها من قبل.

قال الغراب:

— مع من؟

— مع الذين اتبعوا الشيطان.

ومع الشيطان نفسه.

قالت البومة:

— هل سيتخاصمون؟

ابتسم الأسد:

— القرآن أخبرنا أنهم سيتخاصمون.

ليس لأن الشيطان سينقدهم.

بل لأنه سيتبرأ منهم.

قال الله:

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

ثم يقول:

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾.

قال الذئب:

— حتى الشيطان يتبرأ منهم؟

— نعم.

لأن العلاقة التي بدأت بالإغواء تنتهي بالتبرؤ.

أين ذهب النصيب المفروض؟

قال الثعلب:

— ولكننا سميناه «النصيب المفروض».

فأين يذهب عندما يصل الإنسان إلى الحساب؟

قال الأسد:

— هناك تظهر الحقيقة.

ما ظنه الإنسان مفروضاً عليه لم يكن دائماً مفروضاً.

وما ظنه قدراً لا يستطيع تغييره قد يكون اختياراً سلّمه لغيره.

وما ظنه حقيقة مطلقة قد يكون رواية ورثها.

وما ظنه طاعة لله قد يكون طاعة لبشر.

وما ظنه عدواً قد يكون إنساناً مثله.

وهنا يفهم الإنسان متأخراً أن أخطر قيد ليس القيد الذي يُرى.

بل القيد الذي يعتقد صاحبه أنه حرّ منه.

ولكن الله يمهل

قال الحصان:

— إذا كان الظلم قد بلغ كل هذا، فلماذا لم ينتهِ مبكراً؟

نظر الأسد إلى السماء.

— لأننا ننظر من داخل الزمن.

أما الله فلا يظلم.

وقد يمهل.

لكن الإمهال ليس إهمالاً.

قال الله:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾.

فقد يرى الإنسان الظالم يعيش.

ويرى المفسد يزداد قوة.

ويرى الكاذب يزداد أتباعاً.

فيظن أن الأمر انتهى.

لكن القصة لم تنتهِ.

وهم يخططون

قال الغراب:

— وماذا عن مكرهم؟

قال الأسد:

— القرآن لا ينكر أنهم يمكرون.

بل يقول:

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

سكت لحظة.

ثم قال:

— وهذا لا يعني أن الله يمكر بمعنى ظلم البشر.

بل يعني أن تدبيرهم ليس هو التدبير الأخير.

يخططون.

ويحسبون.

ويبنون.

ويظنون أنهم أمسكوا بالنهاية.

ثم تأتي النهاية من حيث لم يحسبوا.

نور الله

قالت البومة:

— وهل يستطيعون إطفاء النور؟

قال الأسد:

— هذا السؤال أجاب عنه القرآن قبلنا.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

ثم نظر إلى الحيوانات:

— لاحظوا.

لم يقل القرآن إنهم لن يحاولوا .

بل قال إن إرادتهم ليست الإرادة الأخيرة.

وهنا تكمن النهاية الحقيقية للقصة.

ليس في قوة إبليس.

ولا في قوة الطاغوت.

ولا في قوة الجبت.

ولا في قوة الدولة.

ولا في قوة الرواية.

ولا في قوة الإنسان.

بل في أن كل ذلك محدود.

أما إرادة الله فليست كذلك.

النار

قال الذئب بصوت منخفض:

— وماذا تكون نهاية الذين أصروا؟

أجاب الأسد:

— القرآن لم يترك النهاية مجهولة.

من كفر وأصر على الظلم والفساد، ولم يرجع، ينتظره الحساب.

والذين اتبعوا الشيطان لا تنتهي قصتهم عند لحظة انتصارهم في الدنيا.

بل عند النار.

قال الله:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۖ لِّدَيْنٍ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

ومناك لا تنفع الرواية.

ولا السلطة.

ولا الجماعة.

ولا الاسم.

ولا الميراث.

ولا من أقنعتك أن ما فعلته كان حقاً.

يبقى الإنسان وحده أمام ما اختار.

الحيوانات لا تعرف كل شيء

سأد صمت طويل.

ثم قالت البومة:

— وماذا حدث للإنسان بعد ذلك؟

نظر إليها الأسد.

ثم نظر إلى السماء.

وقال:

— لا نعرف.

قال الثعلب:

— لكنك كنت تستطيع أن تخبرنا.

— أستطيع أن أخترع.

لكنني لا أريد أن أخترع.

نحن حيوانات.

رأينا الإنسان.

رأينا ما فعل بالأرض.

رأينا كيف استخدم عقله.

رأينا كيف بنى.

وكيف هدم.

وكيف أحب.

وكيف قتل.

وكيف عبد الوهم.

وكيف قاومه.

أما ما حدث له بعد أن صعد إلى الحساب، فلا نعلمه إلا بقدر ما أخبرنا الله.

ولا نحتاج إلى أن نملاً الغيب من عندنا.

آخر سؤال

قال الذئب:

— إذن ما الذي تعلمناه؟

لم يجب الأسد فوراً.

اقترب من حافة المكان.

نظر إلى الحيوانات كلها.

ثم قال:

— تعلمنا أن الفكرة قد تكون أخطر من السلاح.

وأن الخوف قد يصنع طاعة.

وأن الرواية قد تصبح قيداً.

وأن السلطة قد تتحول إلى طاغوت.

وأن الوهم قد يصبح جباً.

وأن الشيطان لا يحتاج إلى أن يجبر الإنسان، إذا استطاع أن يجعله يستجيب.

وتعلمنا أن الإنسان قد يصل إلى مرحلة يدافع فيها عن القيد الذي يقيدّه.

ثم توقف.

وقال:

— لكننا تعلمنا شيئاً أهم.

لا أحد يملك النهاية.

لا إبليس.

ولا الإنسان.

ولا الطاغوت.

ولا أصحاب السلطة.

ولا أصحاب الروايات.

ولا الذين يظنون أنهم أحكموا الخطه.

لأن الله يمهّل ولا يمهّل.

ولأن الظلم لا يصبح عدلاً لمجرد أن صاحبه امتك القوة.

ولأن الكذب لا يصبح حقيقة لمجرد أن ملايين الناس صدقوه.

ولأن النور لا ينطفئ لمجرد أن أحداً أراد إطفاءه.

النهاية

كان الليل قد حل.

بدأت الحيوانات تتفرق.

لكن الأسد بقي مكانه.

قال الحصان:

— وهل انتهت القصة؟

نظر الأسد إليه.

وقال:

— قصتنا نحن انتهت.

أما الإنسان...

فلا أعرف أين انتهت قصته.

ثم رفع رأسه نحو السماء وقال:

— نحن لم نكن هناك عندما صعد للحساب.

ولا نعرف ماذا قال.

ولا ماذا قيل له.

ولا كيف انتهى أمره.

لكننا نعرف شيئاً واحداً:

الله لا يظلم خلقه.

ومن هنا يكفي أن نترك الحكم لمن يملك الحكم.

قال الغراب:

— وماذا نفعل نحن؟

ابتسم الأسد.

— لا نعبد الوهم.

لا نسلم عقولنا للرواية.

لا نجعل الخوف سيداً علينا.

لا نصنع عدوًّا لمجرد أن أحداً قال لنا إنه عدو.

لا نحول البشر إلى قطع في قصة وراثتها.

وإذا سمعنا فكرة...

نسأل:

أين البرهان؟

وإذا قيل لنا:

«هذه هي الحقيقة».

نسأل:

من قال؟

وإذا قيل لنا:

«لا تسأل».

نسأل:

لماذا؟

ثم قال الأسد كلمته الأخيرة:

— ربما كانت أعظم معركة في تاريخ الإنسان ليست بين إنسان وإنسان.

بل بين الإنسان وبين الفكرة التي تجعله يتنازل عن إنسانيته.

وبين الإغواء والاختيار.

وبين النور والظلام.

وبين أن يعيش الإنسان عبداً لما فُرض عليه...

أو يستعيد مسؤوليته أمام الله.

ثم مشى الأسد.

ومشت الحيوانات خلفه.

وبقي المكان هادئاً.

كأن شيئاً لم يحدث.

لكن السؤال بقي في الهواء:

**إذا كان الله قد أعطاك عقلاً، وبصراً، وبصيرة، واختياراً...

فمن الذي سمحت له أن يختار عنك؟

الفصل الأخير

حين بدأ الإنسان يدمر الإنسان

كانت النار قد أوشكت أن تنطفئ.

لم يبقَ منها إلا جمرات حمراء، تتوهج للحظات ثم تخفت، كأنها تخفي شيئاً لا تريد أن تكشفه.

كانت الحيوانات صامتة.

هذه المرة لم يكن أحد يريد أن يتكلم.

كان الأسد وحده ينظر إلى النار.

ثم قال:

— طوال هذه الليالي، كنا نبحث عن الإنسان.

رفع الثعلب رأسه.

— بل كنتَ تبحث عنه.

التفت الأسد إليه.

— صحيح.

قال الثعلب:

— ونحن كنا نعارضك.

قال الغراب:

— ونشكك في روايتك.

وقال الذئب:

— ونطلب منك الدليل.

ابتسم الأسد.

— وهذا بالضبط ما كنت أريده.

رفع رأسه.

— لأن الحكاية التي لا تحتل السؤال... تصبح هي نفسها خطرًا.

ساد الصمت.

ثم قال الأسد:

— لكننا لم نصل بعد إلى السؤال الأكبر.

قالت البومة:

— ما هو؟

نظر الأسد إلى النار.

— كيف بدأ الإنسان يدمر الإنسان؟

قال الثعلب:

— بالقوة.

قال الذئب:

— بالخوف.

قال الغراب:

— بالاختلاف.

قالت البومة:

— وبالكذب.

هز الأسد رأسه.

— كلها جاءت.

ثم قال:

— لكن البداية كانت قبلها.

سأل الثعلب:

— أين؟

أجاب الأسد:

— في الاختيار.

تحركت جمرة، وانطلقت منها شرارة.

قال الأسد:

— أول من اختار العصيان لم يكن إنساناً.

قال الذئب:

— إبليس.

— نعم.

قال الأسد:

— إبليس.

ثم نظر إليهم.

— وفي قراءتي، ليس الشيطان اسماً لشخص آخر منفصل عنه، ولا الطاغوت قصة أخرى بعيدة.

قال الثعلب:

— بل؟

— وجوه لمسار واحد.

اقترب الغراب.

— وضّح.

قال الأسد:

— إبليس هو الذي عصى ربه.

ثم قال:

— وحين بدأ يمارس دوره في إغواء الإنسان، ظهر الشيطان.

وسكت لحظة.

— وحين يتحول الإغواء إلى سلطة تُطاع، وإلى باطل يُحكم به ويُتبع، يظهر الطاغوت.

قال الثعلب:

— هذه قراءتك أنت.

— نعم.

— وليست عبارة قالها القرآن بهذه الطريقة.

رفع الأسد رأسه.

— ولذلك قلت: هذه قراءتي.

ثم أضاف:

— أنا لا أضع الخلاصة أولاً.

أنا أجمع الخيوط وأرى أين تقود.

قال الذئب:

— وأين يقودك الخيط؟

نظر الأسد إلى النار.

— إلى إسرائيل.

ساد الصمت.

قال الثعلب:

— إسرائيل؟

— نعم.

— ماذا تقصد بإسرائيل؟

أجاب الأسد:

— هنا تبدأ أخطر حلقات الرواية.

باختصار، مسار الخيط الخفي:

إبليس → إسرائيل → السامري والجبتي → الجريمة الأولى → بنو إسرائيل → الانقسام → الأحبار والكتاب → الكبار والتلمود → اليهود «النصيب المفروض» → تغيير خلق الله → الفساد في الأرض.

والفكرة الجامعة قال الأسد:

اختيار فردي → يتحول إلى فكرة → ثم إلى جماعة → ثم إلى منظومة → ثم ينتقل عبر الأجيال حتى يصبح فساداً ممتداً.

وهذا كله خيط الأسد وقراءته للأحداث

ثم قال:

— لكنني أرى في الرواية القرآنية عن إسرائيل وسلالته بداية مرحلة أخرى.

قالت البومة:

— أي مرحلة؟

— مرحلة ينتقل فيها الاختيار من فرد إلى نسل.

ثم إلى جماعة.

ثم إلى تاريخ.

قال الغراب:

— لكن أين السامري؟

نظر الأسد إليه.

— هنا يصبح الخيط أكثر غرابة.

قال الذئب:

— أنت ترى إسرائيل والسامري في خط واحد؟

— هذا ما أختبره.

قال الثعلب:

— والجبت؟

— كذلك.

— وكيف؟

أجاب الأسد:

— حين يصبح الباطل شيئاً يُصنع له مقام، ويُعطى سلطة، ويُطلب من الناس اتباعه، لا يعود مجرد فكرة.

قال:

— يصبح جبناً.

ثم سكت.

— أو هكذا أقرأ الخيط.

قال الثعلب:

— أنت تجمع شخصيات وأحداثاً متباعدة.

— نعم.

— وتقول إنها جزء من مسار واحد؟

— أقول إنني أرى احتمال ذلك.

ثم ابتسم الأسد.

— وأنت حر في أن تهدمه كله.

قال الذئب:

— وماذا عن أول جريمة؟

ساد الصمت.

خفض الأسد صوته:

— قتل النفس بغير حق.

قال الغراب:

— ابن آدم.

— نعم.

قال الأسد:

— ومن هنا تبدأ المفارقة.

نظر إلى الحيوانات.

— جريمة فردية...

ثم أضاف:

— ثم يصبح القتل ممارسة.

ثم يصبح الصراع جماعياً.

ثم يصبح قتل الإنسان للإنسان مبرراً باسم فكرة.

قالت البومة:

— وتقصد بني إسرائيل؟

رفع الأسد رأسه.

— القرآن يربط بينهم وبين قتل النفس والإفساد والعلو في مواضع متعددة.

ثم قال:

— وأنا أرى أن علينا أن نسأل: هل كانت تلك الجرائم مجرد حوادث متفرقة؟ أم أنها كانت بداية نمط يتكرر؟

قال الثعلب:

— وأنت تميل إلى الاحتمال الثاني.

— نعم.

قال الذئب:

— لكن بني إسرائيل لم يكونوا جميعاً على طريق واحد.

— صحيح.

قال الأسد .

— انقسموا .

قال الغراب:

— إلى مؤمن وكافر؟

— إلى من استجاب ومن عصى .

قال الأسد:

— إلى من حفظ العهد ، ومن انقلب عليه .

ثم أضاف:

— والمشكلة أن الفئة المنحرفة، إذا امتلكت القوة والمعرفة، تستطيع أن تفرض روايتها على الآخرين .

قال الثعلب:

— حتى تنتصر؟

نظر الأسد إليه .

— ليس بالضرورة أن تنتصر في كل مكان .

لكن يكفي أن تنجح في نقل فكرتها .

قال:

— لأن الفكرة لا تحتاج إلى جيش كي تعيش .

اقتربت البومة من النار .

— وكيف تنتقل؟

قال الأسد:

— عبر الذين يملكون المعرفة .

قال الثعلب:

— الأحبار؟

— نعم .

— والكتاب؟

— نعم.

ثم قال الأسد:

— عندما يكون الكتاب في يد الإنسان، يمكن أن يكون هداية.

ثم خفت صوته.

— ويمكن أن يتحول، إذا أُسيء استخدامه، إلى أداة سلطة.

قال الغراب:

— وكيف؟

— حين يصبح تفسير الإنسان هو النص.

ثم:

— وحين يصبح السؤال تمرّدًا.

ثم:

— وحين يصبح الخلف خيانة.

ساد الصمت.

قال الأسد:

— عندها لا يعود الإنسان يحتاج إلى إبليس واقفًا أمامه.

قال الثعلب:

— لماذا؟

— لأن الفكرة أصبحت تعمل وحدها.

قال الذئب:

— والكبّال؟

لم يجب الأسد فورًا.

ثم قال:

— جزء من هذا التاريخ كما أراه.

— والتلمود؟

— كذلك.

قال الثعلب:

— وتقول إنهما دستور لمشروع إبليس وإسرائيل؟

نظر الأسد إليه طويلاً.

— هذا هو الاستنتاج الذي أصل إليه في هذه الرواية.

قال الثعلب:

— وليس حقيقة أثبتتها لنا؟

— لا.

قال الأسد.

— فرضية.

ثم أضاف:

— لكنني لا أطرحها عبثاً.

قال الغراب:

— إذن قلها كاملة.

رفع الأسد رأسه.

— أرى أن الخيط لم يعد يحتاج إلى صاحبه الأول.

إبليس بدأ الإغواء.

وإسرائيل يمثل، في قراءتي، حلقة بشرية في هذا المسار.

ثم جاءت أجيال.

ثم أحبار.

ثم كتب وتقاليد.

ثم منظومات فكرية.

ثم أصبح الانحراف قادراً على أن يعيش باسم الدين نفسه.

سكت.

— وهنا يصبح الخطر أعظم.

قال الثعلب:

— وماذا تسمي الذين حملوا هذا الدور بعد ذلك؟

نظر الأسد إلى الجمر.

ثم قال:

— النصيب المفروض.

رفع الذئب رأسه.

— من هم؟

رفع الأسد عينيه.

— اليهود.

ساد صمت ثقيل.

قال الثعلب:

— كل اليهود؟

أجاب الأسد فوراً:

— لا تجعلوا الكلام أسهل مما هو.

ثم قال:

— أنا أتحدث عن اليهود الذين أراهم، في هذه القراءة، حملة هذا النصيب التاريخي.

قالت البومة:

— وما الفرق؟

— الفرق أن الاسم لا يكفي.

قال الأسد:

— أنا لا أحكم على قلب إنسان لم أعرفه.

أنا أبحث في المسار الذي أراه في التاريخ.

قال الثعلب:

— وتقول إن هذا المسار استمر؟

— نعم.

— من خلال ماذا؟

أجاب الأسد:

— من خلال الفكرة.

ثم قال:

— ومن خلال الذين حملوها.

ثم:

— ومن خلال الذين أعادوا صياغتها كلما تغير الزمن.

قال الغراب:

— وأين يدخل «تغيير خلق الله»؟

نظر الأسد إلى النار.

— عندما يصبح الإنسان مستعداً لأن يعيد تشكيل ما خُلق له، لا بحثاً عن الخير، بل خدمةً لفكرة السيطرة والفساد.

قال الثعلب:

— وهنا ترى مدخلاً آخر؟

— نعم.

قال الأسد:

— تغيير الخلق ليس عندي مجرد صورة واحدة.

قد يكون في الجسد.

وقد يكون في الفكر.

وقد يكون في القيم.

وقد يكون في طبيعة الإنسان نفسه.

قال الذئب:

— ومن يقود ذلك؟

رفع الأسد عينيه.

— هنا يعود إبليس.

سكت.

— لكن إبليس لا يستطيع أن يفعل شيئاً وحده.

ثم قال:

— يحتاج إلى إنسان يختار.

نهض الثعلب.

كان صوته هذه المرة أكثر حدة.

— إذن أنت تقول إن كل هذه القرون كانت سلسلة واحدة؟

نظر إليه الأسد.

— أقول إنني أرى سلسلة.

— إبليس.

— نعم.

— إسرائيل.

— نعم.

— بني إسرائيل.

— نعم.

— الانقسام.

— نعم.

— الأخبار.

— نعم.

— الكتاب.

— نعم.

— الكبالا والتلمود.

— نعم.

— ثم اليهود الذين حملوا هذا النصيب.

— نعم.

سكت الثعلب.

ثم قال:

— وأين ينتهي؟

نظر الأسد إلى الظلام.

— لا أعرف.

قال الثعلب:

— إذن كيف تعرف أنه موجود؟

ابتسم الأسد.

— لا أعرف.

ثم أضاف:

— ولهذا أسميه خيطاً.

لا سلسلة مثبتة أمام أعيننا.

ولا حقيقة أطلب منكم أن تؤمنوا بها.

بل خيطاً رأيته بين أشياء كثيرة.

قال الثعلب:

— ويمكنني أن أراه وهماً.

— نعم.

— ويمكن للغراب أن يراه بطريقة أخرى.

— نعم.

— ويمكن للقارئ أن يرفضه كله.

قال الأسد:

— وهذا حقه.

كانت النار قد صارت ضعيفة جداً.

قالت البومة:

— لكن هناك شيء أخطر من الخيط نفسه.

نظر إليها الأسد.

— ما هو؟

قالت:

— الإنسان الذي يعتقد أن الخيط الذي يراه هو الحقيقة الوحيدة.

ابتسم الأسد.

— الآن فهمت لماذا أبقيتكم معي كل هذه الليالي.

قال الذئب:

— لماذا؟

— لأن الرواية التي لا يستطيع أحد أن يعترض عليها...

توقف.

ثم قال:

— تتحول هي نفسها إلى طاغوت.

ساد الصمت.

قال الثعلب:

— وإذا كنت أنت مخطئاً؟

نظر الأسد إليه.

— قولوا لي.

— حتى لو كنت ملكنا؟

ابتسم الأسد.

— خصوصًا إذا كنت ملككم.

ثم قال:

— المملكة التي لا يستطيع فيها أحد أن يقول للملكها «أخطأت»...

نظر إلى الحيوانات.

— ليست مملكة عادلة.

لم يتكلم أحد.

كانت الجمرات تخنفي واحدة بعد أخرى.

ثم قالت البومة:

— وماذا بقي لنا من كل هذا؟

قال الغراب:

— ربما بقي السؤال.

قال الذئب:

— وربما بقي الخوف.

أما الثعلب فقال:

— وربما بقي الشك.

نظر الأسد إليهم.

— وكلها أفضل من يقين لم نختبره.

وقف.

تحركت الحيوانات خلفه.

لكن الذئب قال:

— لحظة.

توقف الأسد.

— وماذا عن الإنسان؟

نظر الأسد إلى السماء.

— لا أعرف.

— ألا تريد أن تعرف ماذا حدث له؟

ظل الأسد ينظر إلى السماء.

— الغيب ليس لنا.

ثم قال:

— نحن نستطيع أن نبحث في الماضي.

لكننا لا نستطيع أن نكتب المستقبل قبل أن يأتي.

خمدت جمرة.

ثم أخرى.

وبقيت واحدة.

قال الأسد:

— ربما كان الإنسان ضحيةً في بعض ما حدث له.

ثم أضاف:

— وربما كان شريكاً فيه.

ثم نظر إلى الحيوانات.

— لكن أخطر لحظة...

سكت.

— هي اللحظة التي ينسى فيها الإنسان أنه يستطيع أن يقول: لا.

ثم انطفأت آخر جمرة.

بقيت الحيوانات في الظلام.

لم يتكلم أحد.

رفع الأسد رأسه نحو السماء.

لم يكن يعرف ماذا حدث للإنسان بعد أن صعد للحساب.

ولم يدّع أنه يعرف.

فالغيب لله.

والحكم لله.

والعدل لله.

ثم استدار الأسد وعاد إلى مملكته.

وبقي السؤال في المكان:

هل كان الخيط موجوداً منذ البداية؟

أم أن الإنسان هو الذي صنعه...

ثم نسي أنه هو الذي أمسك بأول طرف منه؟

وحين سئل الأسد عما سيحدث للإنسان بعد الحساب، سكّت قليلاً.

ثم قال:

— لا أعلم.

رفع عينيه إلى السماء.

— فالغيب ليس لنا.

— والحكم ليس لنا.

— والعدل عند الله.

ثم عاد إلى مملكته، تاركاً السؤال خلفه

وصية الأسد

ظلّت الحيوانات صامته.

كانت السنوات التي مرت في الحكاية كلها حاضرة أمامها.

إبليس.

إسرائيل.

الاختيار.

الذرية.

الانقسام.

النصيب المفروض.

الصنم.

الجبت.

الطاغوت.

الرواية.

ثم التاريخ الطويل الذي رأوا فيه الإنسان يبني... ثم يهدم ما بناه بيديه.

قال الذئب:

— الآن فهمنا كيف بدأت الحكاية.

ثم سأل:

— لكن كيف نضمن ألا تصبح مملكتنا نسخة منها؟

نظر الأسد إليه طويلاً.

ثم قال:

— لهذا حكيت لكم القصة كلها.

لم أحكها لتعرفوا الإنسان فقط.

بل لتعرفوا كيف يمكن أن يبدأ الخطأ صغيراً... ثم يصبح نظاماً كاملاً.

أول ما تعلمناه: لا نستهيئوا بالفكرة

قال الأسد:

— بدأت قصتنا بفكرة.

إبليس لم يبدأ بجيش.

لم يبدأ بمملكة.

بدأ بالإغواء.

ثم رأينا كيف يمكن للفكرة أن تجد إنساناً يستجيب لها، وكيف يمكن أن تنتقل من فرد إلى آخر، ومن جيل إلى جيل.

لذلك، لا تقولوا:

«إنها مجرد فكرة.»

فقد تبدأ الفكرة صغيرة...

ثم تصبح اختيارًا.

ثم عادة.

ثم هوية.

ثم سلطة.

ثم نظامًا.

راقبوا الفكرة قبل أن تتحول إلى قيد.

ثانيًا: لا تجعلوا «النصيب المفروض» قدرًا

تذكروا إسرائيل.

تذكروا السؤال الذي بدأنا منه:

هل كان هناك اختيار؟

ثم ماذا حدث بعد الاختيار؟

إذا تحولت الفكرة إلى ميراث، فقد ينسى الجيل الجديد أنه يستطيع الاختيار.

وهنا يظهر أخطر ما سميناه:

النصيب المفروض.

أن يعيش الإنسان داخل شيء فرض عليه، ثم يعتقد أنه اختاره.

لذلك إذا قال لكم أحد:

«هكذا وجدنا آباءنا.»

فلا تهاجموه.

ولا تسخروا منه.

اسألوه فقط:

وهل لأن آباءنا فعلوه أصبح حقًا؟

ثالثاً: لا تجعلوا الانقسام يتحول إلى هوية

تذكروا ما حدث بعد ذلك.

فكرة واحدة يمكن أن تنقسم.

ثم يصبح كل فريق يرى نفسه الحقيقة، والآخر خطأ.

ثم يبدأ الإنسان في حماية هويته أكثر مما يحمي الحق.

وهنا يصبح الاختلاف عداوة.

والعداوة تصنع عدوًا.

والعدو يبرر الخوف.

والخوف يبرر السلطة.

وهكذا تعود الدائرة من جديد.

لذلك قال الأسد:

— إذا اختلفتم، فلا تجعلوا اختلافكم سبباً لإلغاء بعضكم بعضاً.

فالاختلاف لا يحتاج إلى عدو.

رابعاً: احذروا صانع الصنم

قال الغراب:

— ثم جاء السامري.

أوماً الأسد.

— نعم.

وهنا تعلمنا شيئاً خطيراً.

الصنم لا يبدأ دائماً حجراً.

قد يبدأ بفكرة.

ثم يصبح رمزاً.

ثم يصبح مقدساً.

ثم يصبح السؤال عنه ممنوعاً.

ولهذا، إذا رأيت شيئاً لا يجوز لأحد أن يسأل عنه...

فتوقفوا.

ليس لأن كل ما هو مقدس باطل.

بل لأن منع السؤال يحتاج إلى سؤال.

خامساً: اعرّفوا الفرق بين الجبت والطاغوت والشيطان

قالت البومة:

— هذه من أكثر الأشياء التي ناقشناها.

قال الأسد:

— ولهذا لا تنسوها.

تعلمنا أن فرضيتنا فرقت بين الأدوات:

الشيطان يغوي.

والجبت — في فرضيتنا — يجعل الباطل قابلاً للتصديق.

والطاغوت يتحول إلى سلطة يُتبع أمرها أو يُتحاكم إليها.

أما النصيب المفروض فهو الإطار الذي قد يجمع هذه الآليات حين تعمل معاً.

لكن لا تحولوا هذه الخريطة إلى عقيدة جديدة.

لقد بدأناها بسؤال.

فلا تنتهوا منها بإجابة مغلقة.

سادساً: لا تجعلوا الرواية أقوى من الحقيقة

تذكروا الفصل الذي أصبحت فيه الرواية أقوى من الوحي.

هنا كانت الخديعة أعمق.

لم يعد المطلوب تغيير النص.

يكفي تغيير الطريقة التي يصل بها الإنسان إلى النص.

رواية.

ثم تفسير.

ثم تفسير للتفسير .

ثم مؤسسة تحمي التفسير .

ثم جيل يرثه .

ثم يصبح الاعتراض عليه خروجاً عن الجماعة .

قال الأسد:

— لذلك لا تخطئوا بين ما قيل ومن قاله وما قاله الله .

وإذا سمعتم رواية عظيمة، اسألوا:

أين البرهان؟

سابعاً: لا تعطوا السلطة أكثر مما تستحق

قال الذئب:

— وهذا ما رأيناه مع الطاغوت .

قال الأسد:

— بالضبط .

الطاغوت لا يبدأ دائماً بقوة السيف .

أحياناً يبدأ عندما يقول الإنسان:

«سأحتكم إليه لأنه أقوى.»

ثم:

«سأطيعه لأنه أعلم.»

ثم:

«لا يجوز أن أعترض عليه.»

ثم يصل إلى:

«ما يقوله هو الحق.»

وهنا يصبح الاختيار داخل القفص .

لذلك تذكروا:

القوة لا تجعل القول حقاً.

ثامنًا: لا تسمحوا للخوف أن يصنع قراراتكم

قال الأسد:

— رأينا كيف استخدم الخوف عبر التاريخ.

الخوف من الآخر.

الخوف من السؤال.

الخوف من فقدان الجماعة.

الخوف من السلطة.

الخوف من العقوبة.

ثم يصبح الإنسان مستعداً لأن يفعل ما لم يكن ليفعله لو كان آمناً.

لذلك إذا رأيتم قائدًا لا يستطيع أن يحكم إلا بالخوف...

فاعلموا أن الخوف أصبح أداة.

ولا تجعلوه لغة المملكة.

تاسعًا: لا تصنعوا عدوًا كي تحافظوا على وحدتكم

قال الثعلب:

— وهذا ما فعله البشر مرارًا.

قال الأسد:

— نعم.

كلما احتاجت جماعة إلى عدو دائم حتى تتماسك، أصبحت وحدتها مشروطة بالكراهية.

قد يكون هناك عدو حقيقي.

لكن لا يجوز أن نصنع عدوًا لمجرد أننا نحتاج إليه.

اسألوا دائمًا:

ماذا فعل؟

لا:

إلى أي جماعة ينتمي؟

فالقُرآن نفسه حين تحدث عن بني إسرائيل قال:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾.

وهذه ليست جملة تخصهم وحدهم.

إنها درس في العدل:

لا تجعلوا الجماعة تحجب عنكم الإنسان.

عاشراً: لا تجعلوا الشيطان عذراً

عاد الأسد إلى بداية القصة.

— بدأنا بإبليس.

لكننا انتهينا إلى الإنسان.

لماذا؟

لأن الشيطان يغوي، لكن الإنسان يستجيب.

ولهذا، لا يقول أحد في مملكتنا:

«أضلني الشيطان، فلا ذنب لي.»

فالاختيار يبقى اختياراً.

ومن هنا تبدأ المسؤولية.

الحادي عشر: تذكروا نهاية الذين ظنوا أنهم يملكون كل شيء

قال الحصان:

— لكنهم وصلوا إلى القوة.

— نعم.

وصلوا إلى السلطة.

وبنوا الدول.

وخاضوا الحروب.

وصنعوا الروايات.

وأخافوا الناس.

وظن بعضهم أن التاريخ صار ملكاً لهم.

لكننا رأينا النهاية.

حين انتهى كل شيء، لم تنفعهم القوة.

ولا الرواية.

ولا الجماعة.

ولا السلطة.

ولا الشيطان الذي اتبعوه.

بل تبرأ منهم.

وكأن كل السلسلة انقطعت في لحظة واحدة.

وأخيراً: لا تظنوا أن الشر يملك النهاية

رفع الأسد رأسه.

— هذه أهم وصية.

لا تنظروا إلى قوة الظلم فتظنوا أنه انتصر.

ولا إلى طول المدة فتظنوا أن الله غافل.

ولا إلى كثرة الأتباع فتظنوا أن الباطل أصبح حقاً.

لقد رأيناهم يمكرون.

لكن القرآن يقول:

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

ورأيناهم يريدون إطفاء النور.

لكن القرآن يقول:

﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

فالله يمهّل.

لكن لا يهمل.

والحساب ليس بيد الظالم.

والنهاية ليست بيد إبليس.

الوصية الأخيرة

اقتربت الحيوانات من الأسد.

قال:

— من أول القصة إلى آخرها، تعلمنا شيئاً واحداً:

لا تعطوا أحداً ما أعطاكم الله.

لا تعطوه عقولكم.

ولا بصيرتكم.

ولا اختياركم.

ولا قدرتكم على السؤال.

ولا تجعلوا أحداً يحدد لكم من تحبون ومن تكرهون قبل أن تعرفوا الحقيقة.

ولا تجعلوا الرواية أقوى من البرهان.

ولا تجعلوا الجماعة أقوى من العدل.

ولا تجعلوا الملك فوق المسألة.

ولا تجعلوا الخوف سيد المملكة.

ولا تجعلوا الاختلاف سبباً للعداء.

ثم نظر إلى الذئب وقال:

— وإذا أخطأتُ أنا؟

صمت الذئب.

فقال الأسد:

— قولوا لي إنني أخطأت.

قال الغراب:

— حتى لو كنت ملكنا؟

ابتسم الأسد:

— خصوصاً إذا كنتُ ملككم.

ضحكت الحيوانات.

ثم سكنت.

وقال الأسد:

— لأن المملكة التي لا يستطيع فيها أحد أن يقول ملكها «أخطأت»...

ليست مملكة عادلة.

آخر ما قاله الأسد

وقف الأسد.

نظر إلى مملكته.

ثم قال:

— لا أريدكم أن تكونوا مثل الإنسان.

ولا أريدكم أن تكرهوا الإنسان.

أريدكم أن تتعلموا منه.

تعلموا كيف يمكن للعقل أن يبني.

وكيف يمكن للعقل نفسه أن يهدم.

كيف يمكن للفكرة أن تهدي.

وكيف يمكن للفكرة نفسها أن تتحول إلى قيد.

كيف يمكن للسلطة أن تحمي.

وكيف يمكن أن تتحول إلى طاغوت.

كيف يمكن للرواية أن تحفظ الذاكرة.

وكيف يمكن أن تصبح سجنًا.

وكيف يمكن للإنسان أن يعبد الله...

ثم يجعل البشر يتحدثون باسمه.

ثم قال:

— فإذا جاء يوم وبدأ أحدكم يقول:

«لا تسأل.»

فاسأله.

وإذا قال:

«لا تعترض.»

فاعترضوا بالحق.

وإذا قال:

«نحن وحدنا على الحق.»

فاسأله عن البرهان.

وإذا قال:

«هم أعداؤنا جميعاً.»

فابحثوا بأنفسكم.

وإذا قال:

«أنا أملك الحقيقة.»

فتذكروا هذه القصة.

ثم قال الأسد:

— لأننا لم نجلس هنا طوال هذه السنوات لنحفظ قصة الإنسان.

جلسنا هنا حتى لا نكررها.

ساد الصمت.

ثم تفرقت الحيوانات.

أما الأسد، فبقي وحده قليلاً.

رفع رأسه نحو السماء.

لم يكن يعرف ماذا حدث للإنسان بعد أن صعد للحساب، ولم يدع أنه يعرف.

فما غاب عنهم بقي غيباً .

والغيب لله .

والحكم لله .

والعدل لله .

ثم أطفأ الأسد ما تبقى من النار، واستدار عائداً إلى مملكته.

تفرقت الحيوانات في صمت.

لكن شيئاً من الحكاية ظل عالقاً في المكان.

ليس اسماً .

ولا وعداً .

ولا نبوءة .

بل سؤالاً واحداً:

ماذا يحدث حين يعرف الإنسان كيف يسقط غيره... ولا ينتبه إلى أنه بدأ يسقط معه؟

ثم خمدت آخر جمرة.

وانتهت الحكاية.

أما الخيط الخفي...

فبقي للقارئ أن يبحث عنه.

للكاتب:

عبدالله المضاحكة